

مدينة الموت الجميل

سعيد الكفراوى

مدينة الموت الجميل

مدينة الموت الجميل

سعيد الكفراوى

القاهرة ١٩٨٥

« الى روح أبى .. رب الأرض »
« وروح أمى .. ربة الدار »
« لزوجتى .. وولدى حوريس وعمرو »

« مدخـــل »

مقـدر على أن آتى بالمـاضى وأثبتــه على صفحـات هــذه الحكايا .. هل هــو الصوت الذى يأتى من الآمــاد البعيــدة ، عبر الحلم وكهف الذاكرة ؟

أم انهــا طفولة مامضى من أيــام ؟

ربمــا ...

أو ربمــا كمــا يقــول (استوريـاس)

« من يجعل ، وهو يرحل ، أو يموت ، أهله يذكرونه ويستمرون على الاحســاس بأنه يعيش معهم ، لا يكون قــد رحل نهــائيا ، لا يكون مات تمــاما »

لابورصـــا نوفـــا

لابورصا نوفا

كان أبى الشيخ قد عمدنى ثلاثا فى بحر النيل .. كنت طفلا صغيرا اعشق النهر والحارة وجوادى الاشهب .. شرقت بالطمى وصرخت مفزوعا وأنا أغطس فى النهر..صاح بى أبى : اجمد يا ابن الناس. ماء النيل يرم العظام ، ولا يروى القبوب ظمائه .... كان ذلك فى زمن الفيضان شربت الماء بطينه وعلى جوانب الصدر تكونت جزر اسميتها (الوطن) .

النيل يأتى من الجنوب حاملا الطحلب ووردة وجثث المغضوب عليهم .. شاهدت فى الليل قمرا غريبا يلوح مختلطا بدخان، يركض خلال السحب الشاحبة ، فوق الأزقة العتيقة .. بعدها حلمت وفى الحلم بكيت واخذتنى جدتى فى حضنها .. دفعنى أبى أمامه فرأيت فى شحوب الليل ولمعة النهار الأولى جوادى الأشهب مشدودا الى ساقية يدور على مدارها الدرب يثير فى القلب التراب والأحلام .. حول (ركية) النار حكت لى جدتى عن جنية شابة تظهر فى كشف القمر على شط النيل تمشط شعرها وتغنى : ياعروسه ياعريس .. قال لى احد العارفين : انها تطلق نفس النداء من الوف السنين .. قلت له : ألم تتعب ؟ قال : لم تتعب .. وكان عندما يغيب النهر رجلا يقولون : انه العريس .. لكنها سرعان ما تغنى من جديد .. خفت وهربت من عتبة الدار الى باب الحظيرة وجلست ارقب جدتى وهى تحلب بقرتى الصفراء ونادتنى وحلبت فى صدرى لبن بقرتى وكنت اشعر بدفء اللبن واسمع وشيشه .. بعد الحصاد اخذنى أبى الشيخ الى المولد ووشمنى على صدرى .. حمامة وبئر معين ومزار لولى الله واسدا يحمل سيفا وينتظر .. على ذراعى اسمى واسم موطنى .. كان الوشم أخضر كورقة القطن وكان يزهو لونه فى زمن الربيع .. وكنت اسمع آلة الوشم تئز وفى ساحة المولد أرى نساء ورجالا وأطفالا كثيرين وكانوا يغنون وعندما يكفون اشعر انهم تعساء .. فى المرآة الصغيرة رأيت على صدغى حمامتين تتأهبان للطيران وتنضمان الى سرب الحمام العائد والذاهب تجاه المغارب والذى كنت انتظره عند القنطرة الخشبية ولما سألت أخى الكبير عنهما قال لى : انها طيور مهاجرة ولما

سألته الى أين ؟ .. قال لى : انه لايعرف .. لحظتها انتفض قلبى وعرفت معنى البكاء ومعنى الحنين ومعنى الهجرة .

ميدان يعج بالخلق ليل نهار .. تمثال قديم من الصخر القديم لاله قديم .. محطة بخطوط طوالى .. كلوبات آخر الليل تضىء صوانى واسعة مليئة بغذاء فقير وشارع تبدو نهايته مسدودة وحالكة الظلام .

تعثرت فى الأحجار الملقاة على جانب الطوار .. هبت ريح يناير الشتوية وطوحت بفروع شجرة وحيدة مستسلمة لماء المطر .. كان الشارع مقطوعا ، وخفت وحدى سبق وعرفت الخوف لكننى فى أيامى الأخيره أخاف من الموت والغربة والاعتقال .. عادت وهبت الريح الشتوية من زقاق جانبى كالرصاص تحمل عفن الزقاق .. انكمشت فى معطفى القديم وحلمت بالشمس .. سمعت صوت أقدام تتبعنى فخفت وصعدت سلما صخريا يقود الى شارع (الجمهورية) .. سرت فى الشارع وحدى وقلت : الليلة طويلة والمطر لن يتوقف وآخر قطارات (عين شمس) ودع المحطة من ساعة .. عصرت معطفى المبلل .. قلت : الآن لاقروش ولا مأوى والمقهى أنزل أبوابه واسترح .

توقف المطر قليلا .. خرجت من تحت البواكى وسرت يمينا محاذيا شريط الترام ولم يكن ثمة دليل على أن الجو سيصفو وتظهر النجوم .. لكننى رأيتها تقف هناك بجوار حائط الصخر تلذ بشرفته العالية لم أتبينها أول الامر لكننى رأيت ثوبها المنقوش بالورود والسنابل الخضراء (تذكرت وأنا صغير اننى كنت أقطف هذه السنبلات وأحرقها وأفركها بيدى وأذروها فى الريح ثم آكل حباتها) .. خرجت من الضوء الشحيح سائرة نحوى .. كنت أسمع صوت حذائها وهو يغوص فى وحل الشارع .

توقفت أمامى لحظة ، رأيت عينها وشعرها المبتل وظل ابتسامة مسائية .. كانت دقيقة الملامح ، غريبة فى تلك الليلة الممطرة ...
قالت لى — مساء الخير ..

قلت :

ـــ مساء النور .

تأملت وجهها فى الضوء الشحيح وشعرت بذلك الدفء المفتقد.. وكان على ان أواصل المسير ...
قالت :

انها تأخرت .. قالت أيضا : ان الفيلم كان طويل جدا .. وان بيتها بعيدا والمواصلات توقفت .. سارت بجانبى وكانت تتكلم بحماس غريب ، لكنه حماس يختلط بمساحة من الحزن تصل قلبى.

ـــ تصور أن الفيلم كان ٢٤ كيلو وأن رجل البوليس الأمريكى كبس على البيت وكان صاحبه غائبا اعتدى على الفتاة بالقوة .. صمتت قليلا .. ثم قالت لقد كان شيئا فظيعا .

قلت لها : ان الجو بارد جدا .. وانها لاتزال تمطر .

قالت : كان العساكر يمسكون بالفتاة بينما كان يعتدى عليها لكنه حينما صرعها كان وحده .

(ذكرتنى عينها بالثلاث نخلات والبئر المعين وصوت جدتى والمزار القديم وفرسى الأشهب) .

قالت : شقتك بعيد ؟

اخذت كفى بكفها وسارت بجانبى .

قالت الليلة باردة .. سكنك بعيد ؟

كأننى عشقتها فى صباى الباكر ، وكنت أتطلع اليها طول الوقت وكانت تحدق فى وجهى بطريقة غريبة وكانت ملامح وجهى تثير فيها الرثاء .. مدت يدها واعتصرت معطفى المبتل .

قالت : البالطو مشبع بالمطر .

(لو اننى أستطيع أن أنام معها هذه الليلة)

قلت لها : اننى اسكن بعين شمس الغربية .. وأن حجرتى تقع على غيط تين شوكى وبالقرب من قرية تسمى (عرب الحصن) مبنيه على جبانات قديمة وان أهل القرية ينبشون هــذه الجبانات ، لكنهم لا يجدون فيها سوى حجارة عليها كتابات قديمة وغير مفهومة .. قلت لها أيضا : ان الشمس فى هذه المنطقة لاترحمنى وتظل تحدق فى عينى طول النهار .. وقلت لها أيضا لو تطلع الآن .. قلت لهـــا أن اخر قطار قد فاتنى واننى لا أملك الا بعض القروش القليلة وان والدى ما يزال مغروزا فى الطين ، وأن آلة الوشم تئز على صدغى وأن الرجال والنساء والاطفال ليسوا سعداء بدرجة كافية وأن الليلة باردة واننى أود أن أذهب معها هى ، واننى أكره هذه المدينة بدرجة مروعـــة .

اعمدة رومانية الطراز تحمل كنيسة قبطية تظللها أشجار كثيفة مظلمة يســـتقر فوق قبتها صليب حـــديدى .. ينبعث ضوء خفيف ويسقط على ملاك مفرود الجناحين .. تذكرت انه فى أيام الآحاد تدق اجراس الكنائس وانه فى أيام الجمع تدوى مكبرات الصـــوت وأن المدينة تروع فى هذين اليومين .

قالت : انها ترانى يائســـا جـــدا .

اخرجت علبة سجائرها واشعلت سيجارة ولى اخرى .

قلت لهـــا : ان صديقى اسمه (عفيفى مطر) وانه شاعرا مجيدا، وانه له ولد وبنت والولد اسمه لؤى أمـــا البنت فقد نسيت اسمها لانه هاجر واننى كنت أحبها بدرجة كبيرة .. قلت لها أيضا : كلهم هاجروا .

قالت لى : اننى مسكين ... واننى أشعر بالبرد .

قلت لها : ان عمرى ٣٦ عاما واننى عشت خمسة حروب ، واننى وأنا صغير كنت أقف على تل عال على جسر النيل وأرى كشافات ضوء فى السماء تكشف طائرات العدو المغيرة وانهم كانوا يقولون ان جلالة الملك فاروق سيدخل تل أبيب غدا وانه قد مرت كل تلك

السنين ولم ندخل تل أبيب بعد قلت لها أيضا : ان اليهـود يجلسون معنا الآن بالمقهى .

وسـط المدينة الساهر .. ميدان التوفيقية بقعة من الضوء التى تضوى فيها البضائع .. سيارات لمهربين وفنانين متوسطى المواهب .. تجار سوق النهار فى زوايا المقاهى يحسبون مكسب المسعى الحرام اكشاك رغوفها وسقوفها طافحة ببضائع من كل لون ووطن .. قنينات ويسكى مستوردة .. حمالات صدور وفـوط للعادة الشهرية .. ثمار أناناس أخضر كانه مقطوع من شجرة الآن .. سواح آخر الليل أهل المتع المحرمة .. لعب أطفال وحبوب مخدرة من نول عقار الهلوسة حتى أرخص حبوب أراذل المسطولين ... داخل حيز الضوء الباهر كانت تجلس السيدة العجوز فى آخر الليل بين فوح رائحة الطعـام وزحمة أقدام السكارى متشحة بثوبهـا الاسود ملقاة بجانب الرصيف تمـد يدها تتطلب الاحسان فى آخر ليـل القـاهرة .

سبقتنى ودفعت بابا خشبيا كالح اللون .. انفتح البـاب على حانة رخيصة يعبق فى جوها دخان أزرق .. رجال عجائز ينامون على طولات خشبية ويسعلون بصوت مشروخ .. بينمـا امرأتان تجلسان بجوار الجدار المعلق عليه مرآة قديمـة وصـورة لفاكهة غريبة وقارورة خمر .. كان الصمت هو المسيطر وسحابات الدخان تتلاحق .. بين الحين يطلق عجوز قابع وحده آهة متألمة ثم ينخرط فى البكاء ثم يصيح بأعلا صوته (لقد مات وحده) فتنهض احـدى المراتين وتأخذه الى صدرها وكان يكف عن البكاء .

خلف الساقى اليونانى مرآة كبيرة وقديمة أيضا .. راعنى شكلى وشعرى المهوش وعينى المحمرتين .. بدفعة واحدة استقر الروم النارى فى أحشـائى وسرى الدفء فى بدنى المقرور .. احسست باذنى تلتهب ويتدفق فيهما الدم ، بينما عيناى مركزتين على العجوز الذى تأخذه المرأة السمينة الى صـدرها حيث يده تسـقط على عجيزتهـا .

خرجنا من الحانة .. كانت مياه الأمطار تندفع بجوار الطوار ..

كانت المشاهد وملامح الاشياء قد أخذت تتوازن بفعل تاثيرالروم الذى يتشربه بدنى حيث ينسل الى روحى انتشاء مفاجىء .. داخل الممر التجارى ، وفى فتحة العماره الكبيره أخذتها فى حضنى وقبلتها على شفتيها .. استجابت لى والقت بنفسها فى حضنى .. كانت تقبلنى بنهم وعشق آخر الليل مشبوب بوهج مشتاق ، حنين بينما شفتاها لاتكف عن مطاردة شفتاى فى ظلام فتحة العمارة المظلمة .. كانت تبحث عن الأمان فى الليل الموحش الغريب وكنت أنتظر هبوب الرياح فى عصر الأيام التى لم تظهر شمسها بعد .. انطلقت بداخلى صرخة .. عاودنى الخوف من الاعتقال ومن قراءة الشعر ومن أصدقائى ومن اليهود .. عاودنى الحنين الى السفر والى الطواف على الشواطىء البعيدة والعبث بالرمال .. باخت رغبتى تماما وانطفأت، وعدت للصمت قالت لى :

— مالك ؟

قلت لها : اننى اكره ابراهيم الوردانى . قالت : انها لاتعرف ابراهيم الوردانى .. قالت أيضا : انها من مدينة السويس وانها مهجرة وان والدها كان يعمل بالبحر وكانت توصله كلما سافر وكانت ترى الشمس رائقة جدا وطيور بحرية تطير فيها وكانت المركبتذهب الى بعيد .. (من يومها لم يعد ومازلت أنتظره وكنت كل يوم أذهب الى البحر وأمسك بيدى الماء وكان يتسرب من بين يدى).

أحطت خصرها بيدى ثم سبقتها بخطوات (كنت ارى فى عينيها ثلاث نخلات وبئر معين وصوت جدتى وفرسى الأشهب وصوت أبى الشيخ) .

سرت بظهرى مواجها لها .. قلت لها .. اننى أجلس على مقهى اسمه (لا بورصا نوفا) وأن ذلك المقهى يقع فى ممر ضيق .. واننا جماعة نتكلم فى الفن وفى الثورة وعن الوطن ... وان ماضى كل واحد منا مثقل بسنوات فى السجن .. قلت لها أيضا .. ان الحكام لم يضطهدوا جيلا مثل جيلنا .. وانه فى الظهيرة يأتى رجل له ذقن بيضاء يحمل تحت أبطه حقيبته الجلدية المتآكلة ثم يجلس .. يخرج من حقيبته الجلدية المتآكلة قلمه الفحم ويظل يرسم المارة .. قلت لها .. اننى كنت انظر لحذائه وكنت اراه

متآكلا جـدا وكان يطلب من الجرسون طعاما لأنه جـوعان وكان الجرسون يرفض أن يعطيه .. قلت لهـا ان المقهى يكون حارا فى الظهر وكراسيه تكون خالية بينما فى الليل يزدحم بنا وتعلو أصواتنا ونتكلم فى الثورة والفن ونحكى عن الوطن .. ثم يغيب منا البعض فجأة ثم يعودون ويتكلمون عن الرجال فى نواصى الشـوارع أو عن النسور والعقبـان ثم يصمتون ويرحلون .. وتلوح بلاطات المقهى كمربعات الشطرنج وكنت أنظر فى عيونهم وأراها مليئة بالأسى .. وكنا نبكى فجأة وكان الجرسون أبيضا وسمينا ويشتغل عند الحكومة خبرا .. وكنت اقص عليهم حلم الليـالى الماضية عن جفاف النيل حيثما لن يكون زرع ولا ضرع بعـدها سيأتى الرجـال من الشرق حيثما يخضر الوادى وكانوا يضحكون منى وينصحوننى بأن أتغطى جيدا أثناء النوم .. ونفهم ان كل ما يحـدث له معنى واحـد .. ان امس كاليوم واليوم كالغـد .. بعدها نقوم وتغيبنا الشوارع .. قلت لهـا .. فهمت حاجة ؟ .. قالت لى . انهـا فهمت وانهـا تعرف ابراهيم الوردانى .

هاهى القاهرة الفاطمية حيث سكنها بالحى العتيق .. دخلنـا زقاق جـانبى .. اتت زخومة الأشياء المكدسة داخـل الدكاكين والحجرات المكبوسة بالأنفاس .. بلاطات الشارع قلقة يعلوهـا الوحل ومياه المطر .. محلات عطارة تطفح برائحة نفاذة مقفلة على ضوء أصفر شاحب .. يتسرب من أسفل الابواب وتأتى السعلات المشروخة ، المريضة .. عربات يد مستقرة على الحيطان القديمة الشـائهة ذات الحجر الصـخرى .. مآذن مجلوب صـخرها من الصحارى البعيدة منتصبة من مئات السنين .

باب بيتها وطىء ومترب وتحت بسطة السلم تجلس نسوة عجائز حـول نار مشتعلة يستدفئن ويثرثرن .. عربجى يدرج على أرض الزقاق الغير مستوية متخذا طريقه فى البدارى الى السوق البعيد .. تطلعت عيون النسوة ناحيتنا وصمتن .. مررنا بهن ثم ارتفع لغطهن .. انفتح باب شقتها على ظلمة خفيفة .. أتى الدفء الى من الداخل .. أضاءت النور بحجرتها .. سرير خشبى عليه ملاءة بيضاء نظيفة ومرتبة .. مائدة صغيرة وراديو صغير ودورق مياه ولقيمات معـدة للعشاء .. ستارة بيضاء على نافذة مفتوحة تطل على ليـل الحى

العتيق بجوارها صورة لعصفور كناريا يقف على شجرة جاثمة عند طريق يلوح بلا نهـــاية .

خلعت قميصها فبان صدرها الناهد .. اتى الحنين .. وجاءت سكة السروح فى الأيام الماضية من العمر المنقضى والتى لـــم تبرح مخيلتى أبدا .. تتفتح الزهرات ويتضوع النوار فى الربيع .. لم تكن النسوة والأطفال والرجال سعداء .. بينما جوادى الأشهب لايكف عن الرمح فى فراغ الحقول .. سنبلات القمح فى غيطنا المـــوروث يحوطها هواء بؤونة الحجر .. تتفتح الجروح التى لم تندمل يوما .. رياح العصر تدفع الى قلبى بالحنين .. لو أدرك الآن مامضى .. لو امسك بالشمس مرة ولم أفارق أيامى التى لم أعشها .

— تأكـــل ؟

— شبعان .

سقطت عيناى على كتفها وصدرها المستقر فى سوتيان الدنتلا البيضاء .. موانىء بعيدة ونوارس مجنحة وخلجان لأوطان مجهولة .. وحدى أعبث بحصى الماء ، اندفع يائسا مقاومة تيار البحر، بينما موجه يلطم الصخر ثم يعاود انحساره ليلطمه من جديد .

طفا الليل من النافذة المشرعة .. قبلت صدرى وعاودنى الحنين .. كان حنيننا عطوفا .. مرافىء الأمان وحدود الزمن المنقضى (لو يتوقف الزمن فى لحظته النهائية) .. ارض الوطن جسد منطـــرح تحت ضوء القمر الغـــامر .. اشجار الشطآن الممتدة عبر الزمن يطوحها الريح بعد زخم الصحارى وأيام الهجرة ..

قالت لى : خذنى الآن .. خـــذنى .

لكنه جـــاء .. لم يكن بشريا أول الأمر ... خرج كحشرجة ميت .. استقامت نبراته ووضحت حروفه .. صوت بشرى يخرج من الكهف .. كهف الليلة الممطرة .

— نادية .. انت هنـــا ؟

ندفعت واقفا وانا اصيح :

ــ بالشقة احــد ؟

خرجت من الحجرة الى الصالة .. اضأت النور وكانت تجلس هناك .. على مرتبة مفروشة على أرض الصالة .. كومة قديمة من اللحم تنظر الى لاشىء ويدها ممدودة على آخرها .

انفتحت بنفسى كل السراديب المخيفة بسجن (القلعة) واجتزت كل الأدوار الواطئة المتربة متخطيا كل الحيوانات الزاحفــة تتلوى بجوار الجــدران .. اندفعت خارجا من الباب .. صـــاحت بى .

ــ لاتتركنى ، ارجع يامجنون انها لاترى وهى أمى .

انزلقت قدمى وهويت من بسطة السلم العليا الى صحن الدار .. كانت النسوة ماتزال تتحلق حول النار ورؤسهن تتجه نحوى صامتة .. لم يكن هناك صوت فى اللحظة الا صوت أقدامى .. كنت مندفعا فى أى ناحية تبدو مفتوحة أمامى .. كانت قدمى اليسرى قد اصيبت وربما كسرت .. تساندت على حائط وتمنيت أن يذهب الألم بكل مخــاوفى .. خفت من الشرطى وتذكــرت اننى لا أحمل بطــاقتى الشخصية .. كانت اذنى قريبة من نافذة منخفضة وأتانى صوت ينتحب .. كان لشيخ عجوز وكان شبيه بصوت أفزعه الظلام .. وتذكرت ابى الشيخ والليل مدى هائل لايريد ان ينتهى .. استلمت الشارع المؤدى الى المحطة .. كان المطر قد توقف وشبورة خفيفة تسبح فوق الوحل بينما الألم فى قدمى حافر جواد يدب فوق لحمى .

الميدان يستقبلنى بأنواره البرتقالية ، وأكشاكه مستسلمة لبرد الليلة .. كانت البنت تبكى وحدها والأم فاردة يدهــا فى النــور الشحيح وكان الوشم أخضر على ذراعى باسمى وباسم موطنى وكانت الطيور مهاجرة وكنا نتكلم فى السياسة والفن وعن الوطن وكان مكتوبا على الحائط بلون أحمر .. يحيا الوطن الموت للأعداء .. وكانت تلوح مقهى (لا بورصا نوفا) فى جــانب منهــا فترينة من زجاج معروض بداخلها لوحات وتماثيل ووجــوه من كل لون وصنف .. أمريكان ويهود وفرنسيس وانجليز .. ناس بكروش

وناس سفر مهزولين .. صالة مزادات وقرع أجراس .. تماثيل للملائكة وتمـــائم وقلادات فرعونية منهوبة .. أثاثات بيوت الأغوات وتحف لمماليك .. وصف تراحيل على طرق المصارف فى عز شهر امشـير .. حيوانات محنطلة داخل واجهة زجاجية .. بندقية صيد وأفعى ملتف على عامود يطلق فحيحه فى الوهج المعادى .. عصفور ونسر ويمامه بعيون مفقوءة .. كلاب مدربة وصحارى تحتضن بقايا عظام بشرية .. كانت فترينة الصـــور كأرض الوطن وكانت كـــل الصور ملونة وتحت الرؤيا وكانت أعلا الصورة شمس باردة مخنوقة وأناس كثيرين تخرج من الأزقة تحمل العـــلم المصرى .. وكنت انا التعس المعذب .. ارقب صورة العذراء مريم بوجهها القمرى .. لهـــا ابتسامة كابتسامة أمى .. شــــعاع يهبط من اعلا صـــورتها وهى لا تكف عن الابتســـام .. وكنت أناجيها من وقفتى هـــذه .. أول النهار آخر الحياة .. ولمعة خيـــوط النهار تسحب الناس الى الشـــوارع .

« يا عدرا .. يا أم المســـيح .. كيرياليسون
.. يارب ارحم ..
كيرياليسون .. المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض العوض » .

القاهرة : فى يناير ١٩٧٤

الجمعة اليتيمة

الجمعة اليتيمه

ما الذى يبرر وجودى فى الجبل هـذا النهار المخاتل ، البارد ؟ هـو اذن صهيل الجـواد .. حسن .. ليكن .. على أن اقبـل ما وضعت فيـه وأنتزع من قلبى شغفى بمـا هوآت .

تصطدم موجات هواء الشـتاء بالقباب الأيوبيـة .. هى اذن روائح الازمنـة القديمة .. حسن .. مد قدميك ولا تخش الليل . تستطيع بلا خوف — انت خائف بالطبع — رفس كومة القاذورات ، لترى شعاع البرق من نافذة الحـديد .

هـو قـط الممرات الأسود ذو العين الصفراء . ساكن الاقبية والسطوح .. يهبط ودمى درجات السلم العلوى شاحذا أظافره . تجول عيناه الصفراوان بالممر الصخرى . تلتهم الأبواب المحنيـة فوهات المقابر .. العجيزة اللوطية تهتز وانا أراها حيث أبدو متحجرا من الخـوف .

صاح به الرجل الذى ينتعل الحذاء ذا الرقبة ويرتدى البالطـو الواسع الأكمام وقـال له : (بس) وخبط الأرض بقـدمه اليسرى .. توقف القط الأسود ومال برأسه ناحية الرجل الذى ينتعل الحذاء ذا الرقبة ويرتدى البالطو الواسع الأكمام ، وحدقه . وماء بوحشية، ولمـا خاف الرجل واستند للجدار ، اهتزت عجيزة اللوطى وسارت على أرض الممر .

فـردت رجلى على الأسـفلت .. جالت عيناى عبر الكتابة والنقوش المحفورة على الجدران الأربعة ، **(ان تولد وسط الناس فهـذا دافع جيد للدفاع عنهم ، وهـو دافع لاقتلاعك من تربتك).** . التواريخ الغائرة خلف الباب .. عن الساعة واليوم والشهر والسنة .. حساب السنين والمشيب .

رأيت بعينى رأسى كيف يضمحل الزمن ، وينتهى ككائن هائل ، يعود فيتجمع مرعبا والزمن فى الذاكرة غير الزمن خلف الجـدران ..

فى امكانك أن تكون حرا عندما تهيم فى الشارع وتتعرف على الحقيقة الصغيرة المدهشة .. يمكنك أن تشم الهواء بحرية أو لاتشمه .. أو يمكنك أن تتذكـــر لينين أو السهروردى أو حتى ابن جـــلا ، فى الشارع تستطيع أن تصيد السمك أو تغنى بصوت أجش ولا أحـــد يمنعك .

هنـــا تستطيع أن تتذكر ايضا .. ذلك الحامل الحـــديدى النافذ فى الجـــدار الخلفى يبدو لى انا كمشنقة .. الحـــلم بالحبل المتدلى والجسد المتطوح بلا نسمة هواء .. مازالت اظافر القط احس بها تخمش جلدى .. نزعت وحدقت فى الفراغ الضيق المحاصر بعينين مذعورتين .

مزلاج الصباح والمساء الحديدى فى رحلة الانسحاب الى الخلف، يصرخ صرخته الصدئة التى تنفذ الى راسى الواقع على صدرى .. يد مدكـــوكة . ســـمينة — ذات اصابع مدربة . تدفـــع المزلاج الى اذنى فيخرق لى طبلتى .

(آه لو أننى تنبهت لقول جدتى العجوز فى اللحظة التى مررت فيهـــا أخطو أمامها كأننى كنت فى الحلم أو اليقظة لم أعد أدرى.. عندما قالت لى: أنها لم تعرف عن جدى سوى أنه مات ودفن فى جسر النيـــل ، وأنه قبل أن يمـــوت غاب سنوات طويلة لاتعرف له مكانا وأنها ظلت تبحث فى الجهات الأربعة لوادينا السعيد ، ولمـــا يئست هى أخـــذت تندبه بعد ذلك) .

وكنت دائما اسمع جـــدتى وهى تصعد سلم الدار الخشبى تطلق ندبا حزينا لا أعيـــه ، وكنت اسألها : لمـــاذا هى تبكى فى النهـــار وفى الليـــل ؟ وكانت تنظر الى صامتة .

اندفع ضوء من فتحة الباب ، غمر المكان المظلم ، وظهرت تشكيلات الرسوم وحروف الكتابة .. فى فتحة الباب وقف الرجل الذى ينتعل الحذاء ذا الرقبة ويرتدى البالطو الواسع الأكمام (فى الليل يسير الحذاء ذو الرقبة رتيب الصوت يبعث ذلك « الأطيط » الذى يتناهى الى من الطرقة التى تفصل الحجرات باعثا بداخلى ونسا عطوفا ،

حيث ارى ذلك المصباح الأعور يتنفس ظلالا شاحبة ميتة . وأرى على الحائط خفاشا هائل الجناحين من ظلال ، محتضنا الحائط فيما تهزه رياح الشتاء) .

قال لى (دورك فى الغسيل اليوم) .

نهضت ، ونظرت فى عينى الرجل .. مددت يدى ثم سحبتها .. قلت له (لماذا تتجه دوما زهرات عباد الشمس تجاه الشمس ؟) .. جلست ومددت قدمى ، والتقطت قطعة من الخبز الجاف .. ضغطتها باسنانى فتكسرت .. سمعت صوت تكسر العظام .. كانت فتحة قدميه تشكلان رقم ثمانية . خلفها يتألق ضوء النهار .. نفذت من خلال الفتحة . وركبت الهواء كنت هناك .. فى غيطنا القديم ، فى حديقة برتقالنا فى عز نضجه .. كنت هناك على شاطىء البحر الشديد الزرقة ، فى ذلك الوقت من العصر .. كانت المياه تصفق الحصى الصغير والمحارات تبدو ساكنة تحت الماء .. شوارع مزدحمة بالمتسكعين ، وتلك الوقفات العبثية والأصوات التى تحمل الفحش .. والتى تبدو سعيدة .

عدت احمل سكينا وضعتها على الطاولة المدقوقة فى الجدار وانتظرت مجىء الأحذية ذات الرقاب والبلاطى الواسعة الأكمام .

مواء القط فى كل البناء ، وأظافره وردية لكنها فى لون الدم .

— انتهى فى نصف ساعة .

نهضت — ظهرى يؤلمنى — جمعت اشيائى المتسخة . وضعتها فى الاناء البلاستيك ومعها صابونة ميرى وليفة خشنة .. لففت فوطة صفراء حول رقبتى واسندت الاناء الى صدرى .. وسع لى الرجل الذى ينتعل الحذاء ذا الرقبة ويرتدى البالطو الواسع الأكمام .. هبطت الى الضوء الذى يغمر الممر .. الذى يغمر العالم .. كانت الشمس راقدة فى نعومة على أرض الممر فى شكل مستطيل تستحم فيها بعض العصافير ، وكان الرجل الذى ينتعل الحذاء ذا الرقبة ويرتدى البالطو الواسع الأكمام يتبعنى ، وانا أرى تلك العيون خلف ثقوب الأبواب تتطلع ناحيتى وناحية الشمس

ـ يا الهى الطيب ـ اليوم هنا مستقل بالتأكيد ، منفصل عن نسيج الحياة بالخارج يوم لا يبدأ بشمس الصباح الراقدة على بسطة السلم الثالثة والتى تظل تتسع حتى تنير البناء كله ، القلعة كلها ، الا تلك الحجرات ، حيث تنبعث الاشواق فجأة ، ثم تموت فجأة ، وتلك الأطياف للذين أحبهم (هــل ماتوا أم ، مايزالون احياء ؟).

تخطيت مستطيل الضوء ، وصعدت الثلاث درجات السفلية ، سرت خطوات على البسطة الوسطى قرأت كلمة على حائط دورة المياه بعثت فى نفسى السخرية .. دورة الميــاه فى الصباح تتنفس روائح كريهة .. صعدت الثلاث درجات العلوية .. تتدفق الميــاه من الصنابير الخربة .. وضعت الاناء البلاستيك فى الحــوض ، وبدأت أدعــك ملابسى بالصــابون الميرى ، كنت ادس راسى فى (كلبوش) صوفى يتدلى طرفه حتى رقبتى.. هبطت الدرجات العلوية وسرت خطوتين على البسطة السفلية ثم هبطت الدرجات السفلية .. خرجت من باب دورة الميــاه .. نظرت جهة اليمين الى السلم الذى يقود الى سطح الأرض .. خطوة واحدة واكون فى مستطيل الشمس .. الآن أنا فى مســتطيل الشمس .. تغمرنى وتتسلل الى مسامى ، **أعدو فى أميال الضوء الكاشفة عن درة الأماكن التى حرمت من التطلع اليها .. أجلس فى ساحة القرية ، أنا والصبية الصغار ، رفقائى .. أستلقى على شاطىء الرمل معرضا جسدى العارى للشعاع الهابط .. أندفع بجسد نشط ملىء بالحياة حيث أحتسى كــوبا من (البيرة) المثلجــة ، هــا أنا فى رحم جلبــة الأرض ولاشىء يستطيع أن يجذبنى خارج مشاعرى التى تفيض .**

عاد يجرى الرجــل الذى ينتعل الحذاء ذا الرقبــة ، ويرتدى البالطو الواسع الأكمام وكان قــد خرج من المنطقــة .. هرول نحــوى هامسا :

— انت مجنون .. ادخل الدورة .

— اتركنى أغســل هدومى فى الشمس .

— ممنــوع .. ممنــوع .

— سنة من غير شمس تعنى الكثير .

— ادخــل الدورة .

قلت له : اننى غالبـــا ما اســـمع تحت الأرض أنينـــا لاينقطع طول الليل .. قال لى : ان الذى قبــلى فى نفس المــكان قـــال مثــل هـــذا الكلام ولمـــا نقلوه لمــكان آخــر كان يســـمع نفس الانين قلت له : ألم تخف أبدا ؟ ... قـــال لى : انه كان يخاف وهـــو صغير .. قلت لـــه : اننى كثيرا ما أخـــاف بالليــل ، عندما تتحسس يدى صخر الجدران ، أو عندما أسمع آخر يبكى من فرط شـــوقه لولده ، واننى لا أنام ليـــالى بطـــولها من مواء القط الذى يحاصرنى .. قال لى : انه لايعرف عن هـــذا الموضوع شيئا .. قلت لـــه : القط بالأمس كان يهاجم قطة وكانت تطلق مواء شبقا لكن القط لم يستطع أن يفعل معها شيئا ســـوى نهش رقبتها .. قال لى يبدو انك خرفت .. قلت : اغسل هدومى فى الشمس ؟ .. قال : سأبلغ المسئولين .

سحبت نفسى من مستطيل الشمس ، صعدت الدرجات الثلاث السفلية .. سرت خطوتين على البسطة الوسطى ، وصـــعدت الثلاث درجات العلوية .. بدأت أعصر ملابسى فى صمت .. وضعت السروال المثقـــوب والقمصان الداخلية فى الاناء البلاســـتيك ... فكرت فى الاستحمام ، لكن النصف ساعة انتهى .. تسلقت الحوض ، كنت أود لو نظرت من خـــلال ثقوب نافـــذة دورة الميـــاه على الخارج .. هاجمنى القط الكامن خلف النافذة .. كانت مخالبـــه تنفذ من خلال ثقوب السلك الصلبة وردية ولكنها فى لون الدم .. سقطت من فوق الحـــوض .. بعـــد ذلك منعت من الخروج الى دورة الميـــاه .

كنت والجـــدة العجوز نجلس على سطح الدار .. كان وجهها المتغضن يعكس ذلك الحزن الذى ورثتـــه عنها والذى دائما ما اجده بداخلى .. أسندت رأسى الصغير على رجلهـــا المفرودة ، ويدها الصغيرة تعبث بشـــعرى الطويل .. كان ذلك فى يوم الجمعـــة اليتيمـــة .. وكان الله يغمر الشوارع بضـــياء شاحب وهـــواء عاصف .. بينما رجـــل يعزف لحنـــا تحت شجرة الكافور على ناى قـــديم .. كان الغلمان الصغار يصعدون المئـــذنة التى من قبل أن أولد ومن قبل أن تولد الجـــدة .. كانوا يلقـــون بالأوراق

المطوية والتى تخفق كأجنحة طائرة مكتوبا فيهـــا آيات لم تتغـــير ((ألم تر الى ربك كيف مد الظـــل ولو شاء لجعله ساكنا .. ساكنا .. سا .. كـــ .. نـــا)) أوعيـــة فخـــارية تحت النافـــذة الشرقية للمســـجد تتصاعد منها أنفاس البخور .. ونسوة ينتظرن الغائبين ، منكسات الرؤوس زائغات النظرات — الحر فى الظهر — والنسوة فى ظل المسجد ساعة الخطبة يقبعن منكسرات ، والشارع يمتد الى بعيد ، والأفق يسقط عبر الحقـــول ولا أحـــد يأتى لا الذى راح ، ولا الذى سافر .. قالت لى جـــدتى : أن جدى كان شهما، وكان سيد الرجال .. قلت لهـــا : ياجـــدتى لمـــاذا هـــذه الجمعة يتيمـــة ؟ .. قالت جـــدتى متنهـــدة : فى ليـــلة جاء رجال غرباء وأخذوه من حضنى قلت لهم .. متى يعود ؟ .. حدجونى ومضوا به .. قلت لهـــا : لمـــاذا هى يتيمـــة تلك الجمعة ياجدتى ؟... قالت : انها ظلت تبحث عنه وعندما أجابوها قالوا لها : انه سافر مع السلطة ايدرس جسور النيل البعيدة .. صرخت فيها مستفزا .. جدتى أريد أن أعرف لمـــاذا هى يتيمـــة ؟.. نظرت جدتى لقرص الشمس وقـــد كساه الغبار ، والشمس تبدو بيضاء شاحبة ... قالت : أن جـــدى لم يعـــد أبدا وعندما مات لم يعرفوا قبره ، وأنهم دفنـــوه فى جسر النيل فى قبر من الطمى .. تدرك الهـــواء الراكد وأقعيت أنظر فى عينيهـــا الخابيتين ، وخطوط الزمن الزاحف تطوى جلدها .. قالت لى : انها من يومهـــا وهى بـــلا رجل .. استعطفتها قائلا .. لمـــاذا هى يتيمـــة ؟ .. نظرت نحوى وفردت رجلهـــا وقالت لى : انها لاتعرف أيضا لمـــاذا هى يتيمة ؟ .

تحركت النســـوة من تحت جـــدار المسجد .. حملن الأوعيـــة الفخارية .. كانت نارها قـــد باتت رمادا ، وهمدت أنفاس البخور تماما .. كن صامتات وحزانى .. حزن قـــديم لافح كهجير القيلولة، يمتـــد عبر الأزقة ، والظلال المنكسرة ، والحر ينفث رائحة طـــين الجـــدران .

عندما فتحت عينى كانت ستة أقدام تحوطنى .. كانت الأحذية بلا رقبة .. لفت نظرى أنها لامعة ومن مقاس كبير .. كانت العيون الست تنظر الى من مكان عال قرب السقف .

ــ عامــل ايه يا ٢٣ ؟

ــ كمــا ترى .

ــ قم استعد .. مطلوب فوق .

قالها ثم انسحب من الحجرة وتبعــه الاثنان .. حطت على كل حواف العالم ، وهبت ريح آتيــة من داخل اقبية عفنة ، رطبة .. كان منتصف الليــل شديد الظلمة وظل الخفاش المحتضن الحائط يتحفز للطيران .. بدا البنــاء فى تلك اللحظة هائل الجرم .. تذكرت القلاع المنســية على سواحل البحار ، والأمواج تلطمها وتحدث بجدرانها فراغات .. كانت اشياء تتبعثر وتضيع .. احكمت معطفى القصير حول رقبتى .. عندما خطوت خارج الباب كان الثــلاثة يقفون فى صف واحد .. سرت فى الممر الذى فى الظلام .. والصوت يأتينى .. **لمــاذا تلك الجمعة يتيمة ياجدتى .. وجدى لمــاذا لــم تعثرى على قبره ؟ .. والرجال الذين راحو لمــاذا لم يعودوا ؟..** وصلت منتصف الممر كانت زهرة عباد الشمس ذات التويج الأصفر مشدودة نحو الشمس تتبع مسارها فى رحلة الشروق والغروب ، وهبات الهواء عبر فضاء الحقول تطوحها لكنها أبدا لم تنحن .. عندما صعدت الدرجات السبع ودلفت يمينا سبقنى أحدهم .. كان الليــل شديد البرودة .. اشتد مواء القط ، واندفع يذرع الممــر الصخرى فى هياج بدائى ، يخمش الأبواب ويدور متحفزا .. كان الصقر ساكن المئذنة العالية ، التى اعــلا من الجبــل ، والذى استأنس بصوته كل ليلة .. كان فاردا جناحيه قرب النجوم .. دار حول المئذنة العالية والقباب الصامتة .. انقض على الممــر الصخرى وهو يطلق صرخة اقشعر لها بدنى .. وانا جالس أمام الذى لا يأتى الا والخوف فى ركابه .. الصــقر على الممر .. عينا الرجل المحدقتان فى وجهى تعكس لمعة خاطفة .. سرداب محفور بالأرض ، واجنحة تهف فى خرابات مهجورة .. أهرب من عينى الرجل .. المخالب المشرعة تقبض على جسد القــط وتعلو به ، فيما كان ، بفراغ الليل يتردد صوت كالعويل ، كان القط فى ظلمة الآفاق يمــوء بفزع الــعلو ويمــوء بفزع السقوط .

قمـــر معلق فــوق المـــاء

« اننى احبك .. يا سيد المـــاضى »

« مالك حــــداد »

قمر معلق فوق المــاء

(١)

رويت شجر النخيل . ونظرت ما وراء النهـــر ولم أكن راغبا فى مفارقته .. أحزم وسطى بثوبى المبلل ، وارى قدمى ملوثتين بالطين والتراب .. هى أمى النحيلة بثوبها الأسود ، واقفة على سلم الدار تناديني (عبد المولى .. تعالى ياضنايا) لمــا سمعت نداءها ركنت دلو الماء على ساق النخلة المائلة عبر النهر ، وفككت حزامى فانطرح ثوبى المبــلل .. غسلت قدمى ورشـشت وجهى بالمـــاء ونظرت شمس الصباح المتوجة بالعصا والصولجان .

يجلس على حافة مقعد من خشب قديم ، يرتدى جلبـــابا من الصوف المخطط بخطوط بيضاء ، يليق بتاجر محترف .. تبرز من فتحته أزرار صديريته الصدفية التى تلمع فى ظلمـــة (المنـــدرة) الخفيفة . زاول التجارة بالقرية زمنا . ولما امتلأ كيسه بالمال رحل الى المدينة .

هو عمى الذى يربينى بعد أن مات أبى وتركنى وأم فى منتصـــف عمرها تكدح من طلوع الشمس حتى طلوع القمر .

انحنت أمى تشد لى خيط حذائى .. ارى طرحتها تسف التراب، وأرى متاعها مبعثرا فى حجرة المعاش .. امشط شعرى بمشطها .. نكلمنى محنية الظهر (عمك هياخدك معاه ياضنايا تطاوعه ، وانت مبقتش صغير .. هناك هتلاقى اللقمة الطرية والهدمة النظيفة .. ربنا يفتح عليك يا ابنى .. الأمانة ياعبد المولى ، وأوعى تنسى ان عمك فاتح الدار) .

ربطت كمى ثوبى ودسست بداخله متاعى وملابسى . كتاب الحكايا الصغير .. حصان من خشب بقوادم ثلاث وذيل مقطوع (نحله) بخمسة ثقوب كانت مشهورة بين اترابى بصفيرها وخبطها الملون

.. مرآة صغيرة مشطوفة الحواف أرى فيها وجهى كل صباح .. بشط مكسور الأسنان .

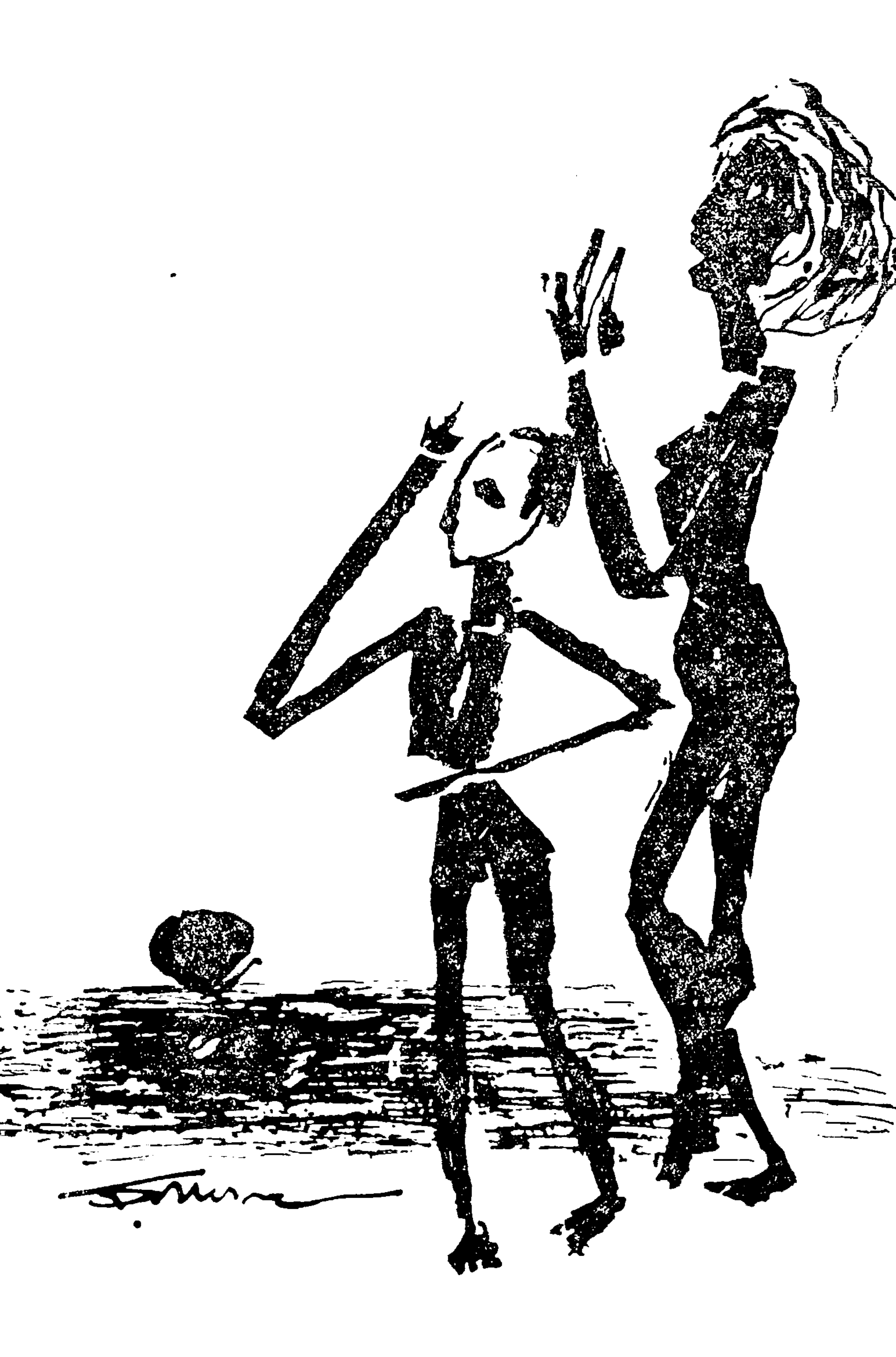
عندما سمعت أمى تقول (أعمل لكم حاجة تخدوها يا حاج)ورد عليها (مفيش وقت) ونهض واخرج من جيبه نقودا ودسها فى يدها وقال لها (خدى بالك من نفسك يا أمينة) وهى ردت عليه (ربنا المنجى ياحاج) واستندت بيدها على الباب الموارب .. برمت ديل ثوبى على متاعى وحملته على كتفى . ولما كنت أعرف أنها تبكى بعد أن تقول (ربنا المنجى) لذا سارعت بالخروج من الدار أسبق عمى . وسمعت نهنهتها وهى تقول خلفى (مع السلامة يا عبد المولى خد بالك من نفسك وطاوع عمك) .

مشيت اهز متاعى وارى الشمس عبر النهر . يستقر فى قلبى بكاء امى .. لحق بى عمى وجعلنا نمشى ونسمع خطواتنا تصدر صوتا ونحن نعبر الزقاق الضيق والمترب .

هى البلد ابتعد عنها . انا ابن السنوات التسع تنقلنى من شط البلد الى شط المدينة مركب مشدودة الى بكرة من حديد يدفعها حنزير له صليل حيث تستقر المدينة التى لم ازرها ، وعالم لم أدخل ابوابه السبعة بعد .

(٢)

شقة عمى لا تشبه بيتنا .. لها باب مغلق بضلفتين اعلاه جرس يصلصل فى الفراغ المحبوس .. تنسدل على النوافذ ستائر من قماش مزهر بزهور ملونة .. على الحيطان سور من الذكر الحكيم .. صورة لعمى شابا ، فقير الملابس والصحة .. أخرى بعد أن متعه الله بالثراء والعافية يلبس نفس النظارة البنية ويمشط شعره فى وجاهة التجار المستورين . ويرى مستريح النفس داخل الزجاج اللامع والاطار المذهب .. فى الصالة كنبه من خشب .. على الأرض سجادة من صوف حائل .. اختفت رسومها وأزهارها تحت بقع الطعام والادام .. حجرة لعمى وامرأته وأخرى لطفلتيه الصغيرتين .. حجرة بصالون قديم ، لها شباك صغير لايفتح على



الشارع .. عرفت لحظتها ان هذه الحجرة مثواى . انام على أرضها وحدى .. تحت رأسى وسادة من قطن كالحجر . تغطينى بطانية رمادية ناسلة الخيوط .

وكنت فى ليال كثيرة أنام متأخرا بسبب تلك الأصوات التى اسمعها تأتينى من منور المنزل والتى كانت تختلط بضحكات شريرة قصيرة وتستمر حتى وقت متأخر من الليل وحتى نام .. وكنت أنام كل ليلة وأنا خائف حتى تمنيت أن أعود الى أمى حيث لم أكن اخاف .

(٣)

ألحقنى عمى بمدرسة تبعد عن المنزل .. وكنت أسير بشارع (الحنفى) عابرا سوق الثلاثاء الى شارع (البستان) . وبسبب خوفى من ان أضيع . علمت رؤوس الشوارع والميادين بلافتات مكتوبة ، ونافورة مياه ، ومتنزه عام . وقسم للشرطة . وضريح لسيدى (المتولى) الذى يجاور مدرسة (محب) التى هى مدرستى . والتى كانت لها بوابة كبيرة خلفها جرس من نحاس معلق وكبير .. وكانت المدرسة لها حوش فيه زرع وأشجار عالية . محوطة بسور من الحديد المشغول بالحراب المدببة والمرسومة بزهرات ذات أفرع تتجه للشمس .

تعرفت برفقائى أولاد المدن . وكانوا خليطا فى مثل سنى . أشقياء وأذكياء ، تجمعهم شراكة الفقـــر .. انزعجت أول الامر ووقفت بجانب السور . أخاف على بنطلونى الذى اشتراه لى عمى . وعلى كتبى وأخاف قلة تجربتى .. بعدها ألفت العيال وصاحبتهم . وكنت أسعد معهم طول اليوم .

فى مرات كثيرة كنت أعود الى سكن عمى متأخرا . وكانت امرأة عمى تعنفنى ، ولم تكن تعرف أننى أتأخر بسبب وقوفى أمام نافورة المياه فى انتظار أن يضوى ماؤها بتلك الالوان البهيجة .

(٤)

وقفت أستدفىء بشمس الشتاء على الشرفة ، أنظر الى الشارع

وارى بهجة المدن فى صباح الاجازات .. خلق كثيرون .. هاهم فى الخارج .. تفتح الأبواب بنبض الصباح .. يبــداون عابسين ثم يدمدمون ويتضاحكون .. تعلقت عيناى بطائرات ورقيــة يطيرها الأولاد فى هواء الصباح ، مشدودة الى خيوط طويلة .. تمنيت أن امتلك واحدة اطيرها فى الساحل على النهر بقريتى .

سمعت رنين الجرس .. خرجت من الشرفة مفارقا الشمس وطائرات الورق .. جاءنى صوت امرأة عمى (شوف مين ياعبــد المولى) فتحت الباب فارتمى ظل البنت بشمس الشتاء داخل الشقة .. قالت : (صباح الخير) . تلجمت ونظرت ناحيتها وســمعتها تضحك لارتباكى .. تنبهت انا الصبى القروى واجبت (صباح النور) قالت لى .. (أم فاطمة موجودة) .. تناهى لى صوت امراة عمى (مين ياعبد المولى ؟) فقلت لهــا ، واحــدة ست ، .. تعالت ضحكتها مجلجلة ، وخرجت امرأة عمى من المطبخ ورأتها فصاحت بدهشة مختلطة بشوق وحب قديمين (مين نبيلة .. والله زمان .. عاش مين شافك) .. اخذتها امرأة عمى فى حضنها وقبلتهــا على خدها .. انسحبت وجلست على الكنبة فى الصالة . ارقب هــذه البنت الحلوة التى تطرق بابنا فى الصباح الشتوى .. لعلها كانت فى العشرين من عمرها ، تفوح منها رائحة طيبــة ، وجهها أبيض كاللبن الحليب ، وخداها احمران كالوردة .

من تكون البنت التى رايت ؟

خفت .. وسمعت دق قلبى ومشيت ناحية الشرفة ، لكن زوجة عمى نادت على (تعالى يا عبدالمولى . ســلم على نبيلة .. دى جارتنا .. ساكنة تحت .. بنت الست أم فاروق . كانت مسافرة ورجعت) .

مددت كفى وضاعت فى كفها .. ضرب الدم وجهى واطبقت هى كفها بحنو زائد .. ارتعشت ورفعت عينى فتلاقتا بالعينين الزرقاوين وذلك الوجــه المدور ذى الحاجبين المقوسين كهلالين .. تذكرت امرأة ببلدى يســمونها ذات العيــون الزرق وانهــا من نســل أغراب بادوا وأن كل البلد تحب النظر فى عينيها التى فى زرقــة

البحر .. قالت لى (ازيك ياعبد المولى) فقلت لهـا (كويس) ثم أخذت راسى فى حضنها .. جلسنا على الكنبة ، اتأملها أنا الصبى القروى فى ثوبها المنزلى المرسوم بأوراق الشجر والمح من خلال باب الشرفة سربا من حمام يدور قبل أن يستقر على برجه .

تكرر لقائى معها ، فى مرة رايتها عند باب شقتها فابتسمت لى وداعبت شعرى .. مرة رايتها امام المنزل تشـترى أغراضا .. حملت عنى حقيبتى وقالت (فين ياعبد المولى .. محدش بيشوفك) واعطتنى كيسا من الحلوى .. وكنت أنزل عندهم حاملا أشـياء ترسلنى بهـا امرأة عمى . وكنت أطرق بابهم فأسمع كلمة حاضر فأعرف انها بالداخل واراها فى المكان نفسه أمام مرآتها بملابس بيتية خفيفة تكشف عن نحرها . وجزء من اعلا ثدييها .. قبلتنى مرة على جبهتى وسألتنى (مبسوط عند عمك .. ابقى انزل عندنا) ولما قلت لها اننى مبسوط لاننى بشوفك .. ابتسمت وخطت ناحية الشرفة ، وأطلت منها ثم عادت وضمتنى الى صدرها وقالت (انت حبيبى ياعبد المولى) ولما وجدتنى فى حضنها امتدت يدى وأمسكت ثديها فضحكت وابتعدت عنى وقالت لى (آه ياعفريت) .. وكنت أنظر فى عينيها وأسبح فيهما وأتذكر المرأة التى فى بلدنا والتى من نسل أغراب بادوا والذين لم أكن أعرف بلادهم وكانت كلما ضحكت أمامى كنت أعدو على شـاطىء مزروع بالعشب وأشم رائحـة الياسمين .

(٥)

لم يكن المساء قد أتى بعـد .

عندما انتهت من زينتها كنت قد انتهيت من تصفيف شـعرى ، وألقيت على نفسى نظرة أخيرة فى مرآتى مشطوفة الحـواف .. خرجت من الشقة أعدو . ونظرت أسفل السلم وقلت لها (حالا) .. أعطتنى امرأة عمى قروشا عشرة ، ونزلت أدرج على السـلم بوجدان جياش .. رأيت سرب الحمام يطير نشوانا من فرط عشقه للبراح .. أتانا صوت امرأة عمى (متتأخروش .. خدى بالك منه يا نبيلة) .

رايت المدينة — وانا اسير بجانبها — كفى بكفها — جميـلة ،

وشارع (سعد) مظللا بأشجار مزهرة .. رأيت نافورة المياه الملونة وبرج الساعة القديمة يدق قبل المساء والزجاج الملون لكنيسة (الآباء القديسين) . وصلنا النهر ومشينا بمحاذاته ، سرنا على الكوبرى القديم ورايت زوارق صغيرة ، يدفعها تيار هادىء بينما الصيادون الفقراء يجلسون ساهمين ناظرين الى الماء ، والبنت تنظر لصدرها الناهـــد .

هــذا ما كتب على أن أراه وأنا أسير معها .

قالت لى (دى مدينة كبيرة ، متقدرش تشوفها فى يوم) .

دخلت بيتا قديمـــا ، له حـــديقة وسلالم من رخـــام وفســـقية مياه معطلة تحوطها نباتات مهملة .. فى الجانب الآخر تكعيبة عنب وبعض أصص الورد المركونة بجوار سور الحديقة .. سألتها(احنا رايحين فين ؟) فردت على (هانزور واحدة صاحبتى) ولما قلت لها (لكن انا معرفهاش) ضحكت منى وجذبتنى من يدى وقالت لى (دول ناس ظراف خالص) .

انفتح الباب على صالة مكدسة بالأثاث ، قابلتنا صاحبتها التى اسمها (منال) ودخلنـــا حجرة جلوس دافئة ورأيت أرضية الحجرة وكانت من خشب لامع وفوق الطاولة ينام مسترخيا قط أسود يدفس رأسه بين يديه تتحرك عيناه الصفراوان المليئتان بالأسرار ببــطء وكسل .

مشت (منال) حتى واجهتنى ونظرت الى مبتسمة ثم حـــولت رأسها ناحيـــة (نبيلة) متســـائلة .. قالت لهـــا (نبيلة) .. (عبد المولى اكتشافى الاخير) .. خطت ناحيتها وقالت بصوت عذب (حبيب قلبى عبد المولى ؟ .

ســـخن وجهى وطأطأت رأسى .. اقتربت منى صاحبتها وقالت لى (انت بقى عبد المولى حبيب القلب) وقلت لهـــا (آه) فانفجرتا فى ضحك صاخب ، وقبلتنى (نبيلة) فى خدى .

لم اكن حزينا وكنت أدرك برغبة حميمة وصاعدة تلك المشاعر الجياشة التى تموج بقلبى الصغير .

شربت كوب العصير ، ورأيت أمى تجلس على عتبة الدار وحدها كأنها تغنى ذلك الغناء الذى كان يفرحنى .. أفقت على صوت (نبيلة) وهى تقول (لو أعرف أخرتها معاه .. كل ما اقول له يتقدم لبابا يتحجج بالظروف) ردت عليها (منال) (انت بتشوفيه ؟) فقالت لها (كل يوم تقريبا) ورأيتها تضغط منديلها ويكتسى وجهها بحزن مفاجىء ، فيما كان القط تستفزه فراشة محلقة. كانت تمسح وجهها .. هل كانت تبكى ؟ ... وكنت أراها وقد اكتأبت . وأحاطت كتفها ذراع (منال) وهى تقول لها (لازم تحسموا الأمر. علاقتكم طالت والناس مبترحمش) .

عرفت أنهما يتكلمان عن الاستاذ (محمد) مدرس الحساب الذى يسكن امامنا .. لا اعرف لماذا خفت وانا اتطلع الى اللوحة المعلقة على الجدار .

كانت لعشب يحترق ، وكأننى اشم رائحة النار ، وفى آخر اللوحة وقفت امرأة لاتبتسم .

هل كانت أمى ؟.. ام أنها (نبيلة) التى أعرف ؟.

(٦)

عندما سأراها فى الصباح سأنظر فى عينيها وسوف أبتسم .. سوف احتفظ بيدها ولن ترى الخوف فى عينى .. تقلبت على جنبى ورأيت كراسى حجرة الصالون تغرق فى الصمت والوحدة .. أضأت النور وفتحت كتاب الحكايا .. احبك أيتها البنت الكبيرة بعينيك الزرقاوين .. رأيتنى أصعد ربوة عالية تسوخ منى قدماى فى رملها الأبيض .. على يمينى منازل قروية مفتوحة الأبواب يجلس أصحابها امامها ، ينظرون ناحيتى مبتسمين .. على يسارى سهل من عشب ..رأيتها وكانت تجلس بين السهل والناس المبتسمين .

(٧)

رتبت حقيبتى وتناولت فطورى ، وساعدت امرأة عمى فى ترتيب الشقة .. هبطت الدرجات ووجدتها واقفة أمام الباب تنتظرنى... سبحت على وقالت لى (عبد المولى .. تعرف الأستاذ محمد مدرس الحساب) قلت (آه) قالت لى (سلمه الجواب ده) أخذته وتحركت فأمسكت بذراعى وقالت لى (اوعى حــد يشوفك).. أخــذت الخطاب الملون ودق قلبى ؛ خرجت من الباب وتعثرت فى حجر .. فى المساء أعطانى الأستاذ (محمد) رسالة لها .. لاحظت بعد أن أخذتها منى أنها كانت سعيدة ولاول مرة تقبلنى فى فمى .

نمت وحلمت أنى اخلع اسنانى وارى وجهى فى المرآه كريها.. خفت وفزعت فسمعت الناس الشريرين يضحكون .

(٨)

استأذنت من عمى أن أبيت معها قالت له (ان أمها مسافرة عند خالتها وأن والدها يشتغل وردية الليل وانها تخاف وحدها)ابتسمت لعمى فوافق وامرنى أن أبيت معها .. لمــا لم يجدنى متحمسا قال لها (ماله .. انت مزعلاه يانبيلة) ردت عليه بحماس (هو أنا أقدر ياعمى ؟) . ضحكت وخرجت من باب السكة .

وأنا أهبط الســلم كانت المدينة تندس فى الليــل وتتجــرد من وقارها .. وكنت أسمع أصوات الناس تأتى من المقاهى المفتوحة.. السلم بعد منتصف الليــل حفرة فى الظلام .. أقف على حافته وكأننى سأهوى الى بئره .. شقة الأستاذ (عدلى) مطفأة بعد أن سافر للصعيد .. أخطو نازلا السلم أتحسس خطاى .

قبل أن أضغط جرس الباب ، انفتح .. وجاءنى عطرها غامضا وعندما رأيتها كانت تقف بالباب ترتدى بشكيرا وتلف رأسها بفوطة على شكل عمامة .. قالت (ادخــل ياعبد المولى ؟ ودخلت وكنت أرغب فى الدخول .. اشم أشياء الشقة التى آلفها وأعرفها .. رغم خوفى الا اننى اشعر بأن ما أنا فيه طيب وجميل .

تجلس جلستها المعتادة أمام المرآة ، تجفف شـــعرها الاثيث ، المبلول بينما تبدو ركبتها فى ضوء الصالة لامعة .. أراها قريبة من روحى .. ّمد رجلى واضع يدى على طاولة عليها تليفزيون مقفل وزهرية صناعية .

غابت لحظة وعادت وقد غيرت البشكير بمئزر أخف ، وتركت شعرها حرا كعرف مهرة .. قالت لى (تشرب حاجة) قلت لهـــا أشرب .

عادت تحمل كوب العصير وعادت بعطر مخالف قالت لى (انها تعتبرنى مثل أخيها وأنها تحبنى) ووضعت يدها على كتفى.. قامت ودخلت غرفة النوم .. كان الباب مواربا ، فى اللحظة التى رأتنى فتحت مئزرها فرايت مالايرى .. هى ابتســـمت وأنا ارتبكت .. قالت (ادخل ياعبد المولى) .

أخطو الآن عابرا ســـبيل النور .. هى فى منتصف الحجرة وأنا أواجهها .. أدرك بحس الطفل ما أنا مقدم عليه .. جذبتنى ناحيتها فانغرزت فى دفء اللحم الحى .. تنغرز أظافرها الملونة فى جسدى الصغير المراوغ .. تركت نفسى لصدرها الثرى .

نمنا معا فى السرير . أنا فى حضنها تتقلب فوقى وجسدها يتحلحل عن مجون مدرب .. اغلقت عينى فقبلتنى بينما أشعر بجســـدها العارى يلتهب .. ماتت عندى ارادة الدفاع واستسلمت .. شعرت بأننى أذوب مع شهقاتها وتطاول جسدها .. لايستطيع احد أن يفلتنى منها الآن .

صفرت أذناى بدق أجراس كنيسة (الآباء القديسين) وأنا أعدو على النهر الذى لم يجف بعد .. وعلى بطنها رأيت زهرات جبليـــة تزهر .. وعلى ثدييها براعم صغيرة كأنها تحبو وأنا أحدق فى وجهها مستسلما .

(٩)

انتهى أسبوع لم أرها فيه .. لا أمام الباب ولا حتى فى الشرفة ولا صدفة فى الشارع .. أجمع أعذارى وأهبط سائلا عنها فتخرج لى أمها وأعود صاعدا خائب الرجاء .. سألنى عمى (مالك ؟) فلم أجبه فسأل امرأته فقالت : انها لاتعرف .

فى العصر رأيتها تقف تحتى ولا ترانى ، ترمى بجذعها على السور تشير بيدها ناحية الاستاذ (محمد) .. رأيته يجلس أمام مكتبه فاردا رجله . وقميصه مفتوحا على صدر ملىء بالعشب ، تستقر عليه سلسلة من الذهب على شكل قلب .. فهمت معنى الاشارات واللغة المبهمة المرسلة عبر الدم والمسافات .

فى الليل .. آخر الليل حيث كنت اقف كل ليلة . رأيتها هناك .. تمرق عبر ممشى من أمام النافذة المضاءة التى أطاحت بستارتها نسمة مفاجئة وكانت فى شقته .

(١٠)

جربت أن كون عاقلا ...

لجأت للصلاة أباشرها جماعة .. اذهب للمسجد القريب لاختفى فى ضوئه الشحيح .. ألبد فى أحد الأركان وأرى السور الملونة لآيات الذكر الحكيم . وأسمع ترتيل المنشدين .

لم تذهب الصلاة وجع قلبى فهجرت المسجد وضعت فى شوارع الحى . أخرج من زقاق مسدود لادخل فى آخر .

كأننى عندما رأيتها من النافذة فى حضن الاستاذ (محمد) تلبس ذلك القميص الملون بالنار كنت قد احترقت .

على يمينى تجارة عمى وامامى منحدر يقود لصهريج المياه .. بلاطات قلقة معجونة بالطين .. بيت خرب مأوى للوطاويط . اكوام زبالة يلعب عليها عيال الفقراء .

ارى (السرجة) بحجر الطاحون تنشع السيرج ذا القوام اللزج .. على بابها لافتة وسخة . اسمع صوت طحن السمسم تحت حجر الرحى الدوار .

فى العصر كانت عنده .. رأيتها فعرفت أنها قبلت بشقته .. ضربنى دمى وهوى قلبى فدسته .. خرجت من باب الشقة ورأيت على الجدار ديكة تتعارك .. تتبادل ضربات المناقير بوحشية .

هبطت السلم باندفاع اليائسين .. جمعت من جنب جدار البيت أحجارا من الطوب والصخر والظلط .. ملأت حجرى وصعدت لاهث النفس .

رميت اول حجر على زجاج شباكها المطل على السلم فهوى شلال الزجاج على البسطة الكبيرة متكسرا فى شنشنة مروعة .. بعده هوت شراعة الباب الزجاجية .. تلاحقت الاحجار ارميها داخل الشقة واسمع صوت التهشيم يتتابع .

خرجت امها ، ونزلت زوجة عمى وصعد الناس الشريرون من المنور وكنت أرى الاندهاش فى عيونهم ولم يكونوا يضحكون .. قيدونى .. يدى خلف ظهرى . مستحما فى عرقى .. صاحت امها (نادوا لعمه) .. حضر عمى لاهثا .. رأى السلم المغطى بالزجاج ، وسمع لغط الناس .. ضربنى بظهر يده ، ثم تتابعت ضرباته وصفرت أذناى .. سمعت صوت صفير القطار .. أركبه وارحل .. أدخل فى ظلمة لاجتاز ظلمة .. مسحت فمى بظهر يدى . فرأيت دمى يسيل . وكان عمى يضربنى وانا أرى النباتات الشوكية تنبت فى بطون الجسور ، تنطمس شموسها الصغيرة حيث أرى أمى قادمة بثوبها الاسود وطرحتها الحائلة .. أرى عودها الناحل عبر منحنى النهر تريد أن تأخذنى وأريد حضنها .

جمع لى عمى متاعى فى شنطة من ورق مكتوب عليها (محلات قاصد كريم) .. غسلت لى امرأة عمى دمى وبكت من أجلى .. سرت خلف عمى وانا أسمع همهمته .. عندما حاذيت شقتها رأيتها تقف خلف الزجاج المكسور دامعة .

ودعت شارع (سعد) ونافورة المياه ومسجد (المتولى) وتجارة عمى وسرب الحمام وكنيسة (الآباء القديسين) قلت فى نفسى (هذا محزن ويمكنك الآن أن تبكى) وبكيت .

سلمنى عمى لاهل بلدى عند موقف السيارات .. رأيتهم يجلسون على الارض فى غبشة أول الليل .. يتجمعون حول مقاطفهم وأمتعتهم الفقيرة .. عرفتهم وعرفونى واندسست بينهم وكنت أبكى ما أزال .

هل كانت المركب وسط النهر ؟

هل تركت شط المدينة الى الشط الآخر ؟

هو الليل اذن .. اراه ولم أكن أحلم .. اسمع صوت صليل الجنزير وقعقعة بكرة الحديد .

(أراه الآن معلقا فوق الماء)
هو القمر .

يخرج من خلف كثبان السحب الطافية ويقترب منى ، بوجه مخنوق ملىء بالندوب والجزازات — وأنا — أفارق المركب صاعدا اليه — حيث هو — أمد يدى أمسح عن وجهه ندوبه وجزازاته .

الاعـــــراف

« ما الذى فاتنى .. ؟ »
« الطفــولة .. »
« انها أكذوبة الشعر »

« وليم جاس »

الاعــراف

هل تأخرت عن الكتــاب ؟

طاردت يده البرغوث الذى ايقظه ، وأزاح الغطاء القــديم .. من القلة المركونة بجــوار الحائط رش وجهه بالمــاء .

سحب من تحت المرتبة المفروشة على الأرض طاقيته التى ورثها عن أبيه والتى دائما ما تســقط على عينه .. خرج الى (الحضير) الساحة التى تفصل الحجرات وبال على الحــائط . على الشمس التى اكتسحت الجدار وغرشت أرض الساحة ، الذى يســتحم كتكوت فى ضوئها الباهر . (ساعة أن تكون الشمس أعلى الجدار لا أكون تأخرت على الكتــاب) .

قال لنفســه :

(هى الشمس تخدعنى وتفرش الحائط ، وتطل على من سطح الدار ، وتأخــذ منى وقتى ، ويخدعنى ظلام المقعــد العلوى) .

ســقط ثوبه فاختفت عورته .. اندفــع نحو الحجرة وخطف المصحف الصغير من كوة فى الحائط ، وهبط درجات الســلم يلعن الشمس والدنيا وامه التى لم توقظه فى الصبح بدرى .

يخطو فى الحارة وجلا تسقط طاقيته على عينــه .. الكتــاب آخر البلد .. شرقا .. على يمينــه القبور وعلى يساره المسجد القديم ، حيث تطل مئذنته العالية كاشفة كل الخلائق .

هم الآن يلغطون ويرتلون الآيات ، يهتزون الاهتزازات الالفية على صدى الترتيل الذى يتردد فى الكتــاب المترب .

تحسس المصحف وتذكر انه لم يحفظ سورة (الأعــراف) .

تعثرت قدمــه (سورة الأعراف لم تهضم .. نهارك اسود باذن الفتاح العليم و انيسه لم تذهب للكتــاب ايضا) .

قبض بأسنانه على ذيل ثوبه (الزفير) وتحت أبطه استقر المصحف الصغير .. يخترق الزقاق الضيق عدوا .. يعدو الولد مارا بالابواب الواطئة التى تفرز أوحال الزرائب المبعثرة . مختلطة بالروث الأخضر (أنيسه لم تذهب .. هى الضريرة وأنا آخذ بيدها خلال الطريق .. نتعلم معا الحرف وسور القرآن) .

وكنت أنظر وجهها الشفيف كالقمر ، وأمسك بكفها الصغيرة وأهمس لها .. انها لو لم تكن فى الكتاب ما رحته .

تحت ابطى كفها .. اسير بها خلال متعرجات الطرق ، والتفاف الازقة . فى بحر القمر اتسلل الى صدرها أدفن فيه خوفى وابثها أحلامى .. **طاهرة أنت يا انيسه .**

(النهــار غائم اليوم ياعبد المولى)

لا تخطىء أبدا ، ترى الشمس وتحس بهبات الهواء .. تتحسس الأشياء وتصفها لى كالمفتحة .. ترانى عندما اضحك ، وعندما ابكى تنسل يدها وتمسح دموعى .

أقول لها (الشمس تملأ البلد) .. تضحك وترفع جبهتها للشمس .. ترد على (ياعبد المولى اليوم غائم ولاشمس هذا النهار) وتكون السحب راكدة ، ويكون القمر مسجونا خلف سحابات من دخان ، وتكون النجوم عالية ترنو خافتة ، وتكون البيوت مكفنة بالظلام وأنا اقف قرب النهر مفضوحا برؤياى الكاذبة ... **(قل ياعبد المولى .. هــذا باب الجامع الكبير) .**

نحن أمام باب الجامع الكبير بعتبته المرتفعة قليلا .. لو أدرك كيف تعرف ؟

هى فى ذراعى نسير ، منطرح تحت أقدامنا الصغيرة جسد القرية المندى ، لسانى لا يكف عن الحديث ، هى مستغرقة سامعة (الزرع أخضر يا أنيسة .. المـاء فى لون القرش الصاغ المخروق .. السماء زرقاء كجلباب ابى .. غفير البلد يحمل

بندقيــة ويصيح فى الليــل .. العمدة يجلس أمام الدوار وفى يده منشــة .. يجلس فى صفار الشمس .. حيث أغيب عنك أكون فى موسم نقاوة الدودة ..البلد صغيره يسورها النخيل والصفصاف .. أتل ياعبد المولى سورة الأعراف .. لم تحفــظ ، أنا عــارفه .. هى ختمت القرآن فى عام .. تحفظه بظهر القلب . تجلس تحت قنديل من نحاس ، مدلى من ســقف ملون .. تضع كفها على أذنها اليمنى .. ترتل بصوت يتسلل كرائحة حلوة تاتى من حديقة الأخيار .. أجلس أنا على العتبــة منكورا ادغس رأسى فى عبى ، وأبكى) .

— امه (هانم) .. الشــيخة (انيسه) راحت الكتاب ؟

— من الصبح .. اخذها الولد (أحمــد) بدرى .

سقط ذيل جلبابه من فمه ، ورفع الطاقية من فوق عينيــه .. سار منكسر الخاطر بجانب الجدار (**عندما حكت له حدوتة شاطر الشطار الذى يركب فرسه ويمتشق حسامه فى رحلة البحث عن الأميرة التى حبسها الجنى فى البرج العالى .. قال لهــا : وماذا عمل الشاطر ؟ .. قالت له : كانت الفيلان نابد بجانب السور .. تخــوف .. وتســد بيدها منافذ الهواء . قــال لها : لكن الأميرة مسجونة ماتزال ! .. قالت له : حفظت سورة الأعراف ؟.. قال لهــا : لكن الأميرة فى البرج العالى مسجونة**) .

رفس حصاه واكتسحه الالم حتى دماغه ، رفع قدمــه وظل يدور بها نافخا أصبعه الكبير .. سقط المصحف ، روع .. رفعــه الى جبهته وقبله ثلاثة .. قال فى نفســه (انيســه واحمــد ذلك النسقى) .

سار يتسكع فى الدروب ، واليد القوية تدفــع بالشمس الى وســط السماء .. ظلال الجدران تنسحب ، وتتبعثر الحوارى أمام عينيــه مثقلة ببيوت عطنة تزفر روائح النهار المكتومة بزمنــة الحبسه تحت الأشجار القليــلة نسوة ضامرات ، متربات الوجوه يبعن التين الشوكى والطماطم المضروبة .. تجمعات الذباب الملحاح تحط فى حيوانية مصرة على أرغفة الدكاكين الناشعة بزيوت لزجة وروائح مألوفة لعطارة نفاذة .. (**دائمــا سورة الأعراف**) .

مصباح له زجاجة مدخنه وشريط مهذب .. للنور بهجه الكشف ، وحروف الكتاب أمام عينه مراوغة .. الليل ستر وغطاء والكلاب حراس بلا أجر ، وطلقات البنادق فى الغيطان مدوية .. ينهق حمار .. أنيسه تقول : نهيق الحمار بالليل علامة وجود الشيطان فى الدار .

نظر الى النافذة .. كان الشيطان يقف متعلقا بحديدها بعينه الواحده المشقوقة والتى تطلق الشرار .. ينفث النار من فمه الواسع ويبتسم .. أنفاس أبويه الرتيبة تتردد ، وهو يخاف من الشيطان القابض على اسياخ الحديد .. تضيع منه حروف الكتب ويهرع مندسا فى حضن أبويه شادا الغطاء حتى رأسه .

عند فم البحر القنطرة ، وحلقة الغلمان .. عندما وصل كانوا يلعبون (ملك ولا كتابة) .. لمح القرش يدور فى الهواء ويتلقاه الصبى ببطن يده دافنا اياه فى التراب .. تجول عيناه الشقيتان فى بقية العيال هاتفا بهم :

— ملك ولا كتابة ؟

يخسر الغلمان دائما .. التراب تحت قدم عبد المولى ساخنا . والبحر يجرى لبعيد ، حيث بلاد الله وخلق الله .. كفوف الأيادى ترسم على الأرض علامات مهوشة ومجهولة .. تهب نسمة شردة والصبى الآخر عينه فى عين عبد المولى :

— تلعب ياعبد المولى ام تخاف امك ؟

التراب تحت قدمه نارا .. بجيبه يستقر القرش الوحيد ، وغربان الظهر تحوم كاسرة .

— تخسر ياعبد المولى .

يدور الولد القرش فى الهواء ويدفنه فى التراب .. يهتف بالغلمان :

— ملك ولا كتابة ؟

وضع عبد المولى قرشـــه الوحيـــد على تراب الجسر بلهفـــة الخـــائف :

ـــ مـــلك .

رفع الولد كفه .. كانت الكتابة تواجه الشمس بحروفها الصغيرة المنقوشة ... تلمع الكتابة على التراب بينما صورة ملك عبدالمولى لاتبـــين .

ـــ قلت لك تخسر ياعبد المولى .

دس يده فى جيبـــه فلم يجـــد الا كسرات خبز جافة .. نظر للشمس فرأى الغربان تحـــوم زاعقة .. عندما قـــال (لأنيسه) انه عندما يكبر ويرتدى جبته ويلبس عمامته ويذهب للمعهد الدينى فى المركز سوف يشترى لها طرحة بيضـاء .. ردت عليه : سورة الأعراف هى المبتغى .. قال لهـــا : وانه عندما يحضر فى الأجازة سيحكى لهـــا عن ناس المدن .. قالت له : انها تقـــوم فى الفجر وحدها وتتوضأ وتصـــلى وتطلب له الهـــداية .

عندما وصـــل باب الجـــامع الكبير كان المؤذن يدعـــو الناس لصـــلاة الظهر .. اندفع بقـــدميه الحافيتين الى صحن المسجد.. ولج باب المئذنة الواطىء ، وصعد الدرجات السبعين حتى السياج الخشـــب .. قال له المـــؤذن (ايه اللى جـــابك ؟) فرد عليـــه (أختم الآذان) .. شخط فيـــه وقال له (انزل) .. رد عليه مستعطفا (والنبى ياشيخ أحمـــد أختم الآذان) .

انطلق صوته (الصلاة والسلام عليك يارسول الله) رفيعا مميزا، هابطا من المئذنة حتى ساحة الكتـــاب .

قال سيدنا : (صـــوت من هـــذا) فردوا عليه (صوت عبد المولى يا مولانا) فقـــال لهم : (هاتوه ابن الحرام) .

قبل أن ينتظم فى الصف ، كانت يد العريف شحاته تقبض على ذراعه بينما هجم عليـــه غلامان وقيـــدوه .. وجروه على الأرض.

ـــ اتركنى ياعريف (شحاته) أبوس ايدك .

— أكان لابد من ختم الآذان ... مولانا سمعك ونهـارك باذن الله أغبر .

— تشفع لى يا عريف شـحاته .

— حفظت سورة الأعـراف ؟

— لا .

— اذن لا شفاعة .

دفعوه الى باحة الكتـاب وسدوا بابه .. فوجىء الصـبية به نصمتوا . ثم واصلوا القراءة .. أرض الكتاب تفرز ترابا ناعما .. تحت التوتة زير عريق يرشح منه المـاء ويعلوه غطاء من خشب ، فوقه كوز صدىء بيـد مربوطة بحبل مجدول .. فى حضن الجدران تنبش الارض كتاكيت وتستحم فى مـاء الطلمبة .

يبحث عن أنيسـة بين زحمة العيال . عن الوجه الطيب الملفوف بالطرحة السوداء ، يود أن يخفيـه . تدخله فى عبها . تهـرب به مخترقة الجـدران الى فضاء الله السـارى .

سمع نحنحة مولانا فى المرحاض . ممطوطه وزلقة . تخرج من حلق ضيق المجرى .. هى اثقـال الخواتيم وليـالى المـآتم ودسم العشاء فى صحن المسـجد الكبير ، تفرغ الآن بصوت فاضح .. تسللت عينـه حتى مصطبة الشيخ فاصطدمت بالجلدة والفلقـة فانقبض قلبه ، وارتعش .

زحفت « أنيسه » حتى عنده ، وأمسكت بيده :

— ما الذى أخرك ؟

نسـيت أمى أن توقظنى .

— حفظت سورة « الأعراف » ؟

— أبـدا .

— اطلب العـون من الله .

عقـد مولانا تكة لباسه .. صاح :

— جاء ابن الكلب ؟

— جاء يامولانا .

أمسكت اليـــد السمينة بالجلدة .

— حفظت سورة « الأعراف » ؟

— اصـــل .. أنا .. يامولانا .. كنت ..

— انطق يا ابن الشياطين .. حفظت السورة ؟

وهـــوت الجلدة على وجـــه الولد .

— سأجودها اليوم باذن الرحمن .

— رحمن ياخـــذك وأبيك وامك .

هوت جلدة على ظهره فارتعش والتوى صدره ، ارتفعت يده تهرش مكان الضربة .. **(لو أن أمى لم تنسنى ، ولـــم تخدعنى الشمس على الحائط)** .

بكى وانحنى خائفـــا :

— آخر مرة يامـــولانا .

— قيـــدوه ابن الكلب .

تقـــدم العريف شحاته وقبض على رجله ورماه على الأرض ، وأدخل رجله فى الفلقـــة ثم متنها على القـــدمين .. فمه اندفس فى التراب وسف حتى شبع .. استجار ولا مجير .

— الرحمة يامـــولانا .. آخر مرة ..

القدم تحت رحمة الجلدة .. والجلدة مدبوغة فى زيت وملح ، منسوجه بسلك رفيع يدمى .. الضرب أعشى ، ليليـــا .. له وقع مستحكم فى الصمت المفاجىء .

يلج أبواب تفتح على ظلمـــة .. يجلس شيطان الليـــل جامعا قروش الملك .. هـــو الوجع يأتى جارحا الى العظم الأخضر الصغير .. على جانب الجسر سبيل الماء وسلسلة الحديد تصلصل بالهواء العاصـــف .

وحــدى فى الليــل و (أنيســه) تخطومتعثرة بجوار الحيطان .. الأزقــة مســدودة بالعفاريت .. الضرب ينتظم مــع صرخة الآه .. الغلمان مقهورون ، يبكون الآن فوق المصاحف الصفراء.. لهــات مولانا زغرات نار . وصــوت كالفحيــح .. بعتم العينين المطفأتين تســير ((أنيسه)) ممــدودة اليــد تتحسس طريقها ، ندوس بطون الكلاب الغافيــة النابحــة .. أسمعها عند منحنى النهر ، فى ظل المســجد الكبير (لو أنت معى الآن ياعبد المــولى، ..الرحمة ياسيدنا .. هى سورة ((الأعراف)) اذن ؟ . الطريق بلا منتهى .. ينحت فى الصخر .. فى الغيب . القناديل الزيتيــة يرتعش ضوؤها فى خانات الوراقين .. رواق يفرش ببسط خضراء مرسومة بعرائس .. الألم .. الحلم .. (من سيعود ((بأنيسه)).. الفجر .. القــدم تدب على تراب أول النهار وآخر الليــل ... صدى آذان الفجــر يتردد عبر الحارات المســدودة .. الرحمة ياســيدنا .. هى سورة ((الأعراف)) اذن ؟ .

صـــندوق الدنيـــا

((قلت لشجرة اللوز : حدثينى عن الله))
((يا أخت .. فأزهرت شجرة اللوز))

((قديس فرنسسكانى))

صـندوق الدنيـا

صوت مزمار يحمله الهـواء حيث تقف البنت (مريم) وكذلك الولد .. قالت البنت :

— سامع يا (على) فقال لهـا :

— آه غردت عليـه :

— صاحب صـندوق الدنيـا .

صوت المزمار يستقر بقلبه ، يدركه بحسـه الغامر .. يعرف انه الآن يزيح من نفسه حيرة الأيام التى مضى ينتظره فيهـا ويتوقع حضـوره .

(وكنت أذهب فى الأيام التى مضـت الى حيث جسر النهـر ، وأقف على قنطرة الخشب التى يفوت من تحتها المـاء ، واظل أرقب الطريق الذى يجىء منـه ، علنى أرى على البعـد راية صـندوقه الملونة يلعب بها الهـواء حتى أصـيح فى الأولاد .. العم (أيوب) صاحب صندوق الدنيا .. وكان الوقت يمضى فى تلك الأيـام التى انتهت ، والتى لم يجىء فيها وكنت أرى الناس يعودون من الغيطان منكسرين بتعب النهـار ، وكانت خلفهم تسقط السماء على الأرض ويهبط الليـل) .

— عم (أيـوب) أعرفك .

خطى عتبة الدار ووازى سبيل المـاء الذى يستقر تحت التوتة ذات الظل الممتـد حيث ينام أهله فى هجير الظهر .. شمس آخر النهار زاحفة على الجـدار .. تدور دوآمة من التراب والجو يعفر بترابة خمسينية .

غطى صوت المزمار الحـوارى والأزقة فخـرج العيال والبنات يزيطون .. وحـده يقف خارج لمـة العيـال بينما العم (ايوب) لم يفارق خياله .. يجلس بين الغلمان ويحكى لهم عن صور الصندوق وفرسانه .. عن الجـدود والشطار .. تنهـد وقال :

— العم (أيوب) آت مع (الخضر) وبالخير .

(وكنت فيما مضى أخرج وحـدى حتى اذا ما وصـلت حديقة الريحان على النهر ، وأشم الرائحة الحلوة ، وأرى أبراج الحمام حيث يطير الحمام فأصيح فيـه (طير ياحمام) وكان يسمع صوتى ويطير بينما أسـند أنا ظهرى لساق النخلة المعوج وأتذكر فرسان الصندوق الذين يخرجون من حـديقة الريحان ويشهرون سيوفهم التى تضوى بالشمس ، وكانت حوافر الجياد تثير التراب والأحلام)

قال للبنت :

— سيأتى مولانا (الخضر)

قالت البنت :

— تقصد عمك (أيوب) .. قال فى نفسه (أقصد مولانا الخضر).

وكان قـد قابله صدفة فى حصاد العام الماضى .. كانت الأجران مكتظة عن آخرها بأحمال التبن .. على الأرض كيمان هرميـة من حبوب القمح .. البهائم مربوطة على طاولات غير دائمة من أفرع الخشب وجذوع النخيل ، تلوك الدريس الصائف .. نسوة عجائز تلتف بشيشان كالحة تحمل مخلات فارغة تنتظر من الأب الذى يكيل القمح فى زكائب أن يوزع عليهن زكاة محصوله وكانت النسوة تفتح مخالهن وأحجارهن ليفرغ الأب فيها مكاييله بعدها يسرن فى خط من سواد ، يلهجن بالدعاء ودوام الخير .

العم (أيوب) يجلس قرب النهر ، يسـند صندوقه الخشبى الى شجرة تمـد فروعها نحو المـاء ، ونحو الطريق .. يحيـط بالوجه المستدير ذقن شيباء تطل منه عينان كحيلتان ، وفم مزموم على اصرار وطيبـة .

— غـريب ؟ سأل (على)
— أنا عمك (أيوب)
— صاحب صـندوق الدنيا ؟
— نعـم
— وهـذا صندوق الدنيا ؟
— آه



صـــندوق من خشب خفيف .. مدهـــون بلون بنى ، له قـــوائم اربعة قصيرة .. تعلوه راية مستكنة من قماش ملون لاتدل على وطن .. نقش أعلاه بخط النسخ (ســـير الأولين عبرة للآخرين) .. فى جانبه الأيمن لفظ الجلالة ، وفى الأيسر (محمد) .. عيون ثلاثة من زجاج ملون تحتهـــا كتب (صندوق الدنيا لصاحبه العم ايوب .. حكايات عجيبة وقصص غريبة ولطائف وطرائف بالصور المدهشة التى من عجائب الزمان) .. فى آخر الصـــندوق ... (الفرجة بتعريفه) .

كانوا قد حكوا له عن الصندوق .. عن صوره وألوانه وأميرانه .. وحكوا له عن مولانا (الخضر) الرجل الذى يجىء من آخـــر الدنيا .. من الزمن البعيـــد .. قالوا له ان العم (أيوب) يقول : ان (الخضر) اذا جاء صارت الســـماء فى لون قلوع المراكب ، وامتلأت ضروع البهائم بالحليب حيث تدر من غير أن تمســـها يد ، وان الأرض ترمى بالمحصول الوفير .. وقالوا ان العم (أيوب) يحب أن يرى الناس كأسنان المشط كما يحب الأطفال لأنهم أحبـــاب الله ، وانه لايحب الاغنياء لانهم لايشـــبعون .. وعندما سألهـــم (على) متى سيجىء .. قالوا له : ان علم ذلك عند العم (أيوب)

من يومهـــا أحب (الخضر) وانتظره .

(وكنت أخرج فى عصارى المـــاضى ، وألبد عند قنطرة الخشب، وانظر لون الســـماء واسأل نفسى : ان كانت السماء تشبه لون قلوع المراكب ؟ .. وأنظر ضروع المواشى العـــائدة من الغيطان لكننى فى كل مرة أنظر فيهـــا للسماء كنت أرى ســـحبا من دخان أسود لاتركض ولا تسقط المطر) .

قال العـــم (أيوب) :

— اســـمك .. ؟

— أنا (على)

— أنا جوعان يا (على)

نهض (على) بلا كلمة .. دار حول الجرن فناداه أباه « الى اين ؟ » فقال له (للدار) وانطلق يعدو من زقاق (البداروة) حتى حارة (الساقية) حيث دارهم .. انسرق من امه صاعدا الى الدور العلوى .. فى جانب فسحة الدار العلوية صومعة الغلال ، تنتظر حبات القمح فى الجرن .. وكانت الجدة قد أتت بطينها من طرح النهر وخلطته بالتبن ووحل الزريبة ، وكان يراقب الجدة وهى تصعد سلم الدار تنتظر جفاف الصومعة حتى اذا جفت ، ختمت عليها بيدها وقرأت الفاتحة ودعت لها بالبركة .

نظر الى البلد من على سطح الدار .. سور محوط بأشجار أبرية على حديقة برتقال العمدة .. ست نخلات صف واحد ، وشجر دندان يتوحوح بصوت النبى المذبوح .

فتح باب حجرة اللبن فأن وانغلق وحده ، وحلت ظلمة خفيفة .. كشف مشنة العيش وسحب رغيفين من تحت البرسيم المفروش فوق الخبزات ، وضعهما تحت ابطه وغطى المشنة .. حمل شالية اللبن ومن ثم هبط السلم متوجها ناحية العم .

كان يتأمله والشيخ يتناول طعامه بجوع ونفس مفتوحة ، ويرى اللقيمات تغيب فى فمه فيسعد بالرجل وبحسن الصدف التى جمعته به فى زمن انحصاد هذا .

تجشأ العم مستريحا ، ثم تنهد :

— يا الله .. الجوع كافر .

— بالهنا والشفاء .. اشرب اللبن الباقى ياعم (أيوب)

— شبعت .. نحمد الله .

— والله لانت شارب .

رفع الرجل الشالية واخذ يرشف ما تبقى من اللبن بصوت مسموع ، وكان خط رفيع ينسرب من فمه حيث ذقنه الشيباء .. مد (على) يده وهو ينظر مبتسما فى عينيه ومسح خط اللبن من على الذقن الشيباء .

رمت الشمس على الأرض بآلاف قروش الذهب .

وحومت حمامات أبراج حديقة الريحان فوق مياه النهر .

قـال العم :

— تشوف الصندوق يا (على) ؟

— ياريت

قام وجهز له الدكة الخشب ، وتقـدم (على) من الصندوق ثم جلس عليها ونظر من العين الملونة .

غاب الولد فى الالوان ، اخذته شخوص الصندوق الى حيث الزمن المبارك .. صوت الرجل يأتى صافيا رائقا .

(ها هـو ، الخضر) الحكيم بما يعلم .. دارس النجوم .. فاتـح الكتاب .. عارف سر اللسان .. مدرك لأزمان المواسـم وتواريخ المحاصيل .. فى حضوره يخضر الزرع ، ويمتلىء الضرع، ولا يكون انسان فقـير) .

أصوات المزمار تتسع ، تتفجر بحـيرات من النغم .. خرجت البنت (شربات) من باب دارهم ، تسحب اختها وتنادى (صاحب صندوق الدنيا يا اولاد) .. هاص جمع الغلمان ، وفارقوا ساق شجرة النبق العجـوز وتوجهوا حيث الصوت .

الصندوق يقف على قـوائمه الأربعة .. السـتارة يلعب بهـا الهواء ، والراية الملونة لاتدل على وطن .. يلتف الغلمان والبنات حول الرجل وصندوقه ، يتأملون الكتـابة التى بهتت ، ورسـوم الفرسان والعرائس المكتسية عيونهم بالحزن .

لمحه العم (ايوب) فتبسم له .. نادى عليه تعـالى (ياعلى)

وحـده يقف متطلعا الى السـماء مرة ، يحدق فى الشمس التى تذهب لشباك النبى ، فى صحوتها الأخيرة ، والتى تدوسها حوافر

دواب الآصال .. يرى ظل النبقة الممدود بأذرع ضارعة عبر الجسر ، ويسمع نباح كلب قريب من جدار طاحونة الفلال .

— مد يا (على)   قالت (مريم) تستحثه
— هم (ياعلى) .. العم ينادى عليك .

تقدم — ترى هل يرى الوجه المنور حتى العنق ؟ — وهو يسير ناحية الرجل كان صوت المزمار يرجف قلبه . وعاد يتذكر الليل الذى يغيب كثيرا من الحقائق عن ادراكه .. تذكر الأيام التى مضت ينتظر فيها العم عند القنطرة .

تنهد الولد وحث الخطى .

— أريك يا (على) .
— نحمد الله .
— اقعد .. شوف الصندوق .
— لا مال عندى .
— اقعد يا ابنى .

جلس على المقعد ، ود أن يسأله عن مولانا (الخضر) ، لكن الصور تتابعت آتية من شمال ليمين ، وصوت الرجل يأتى مجللا بالوقار ، يحمل رائحة العشب ودفق المياه .

— عنترة وأبوزيد الهلالى .

(اعرفكما يا فارسى الصندوق بشاربيكما المفتولين ، وأرى جواديكما الأدهمين ، والسيفين ، المرفوعين فى الشمس علامة الخوض فى زمن الفرسان الموصول بحكايا الجدود) .

— مريم الزنارية ونور الدين .

الوان خضراء وحمراء .. صفراء وزرقاء .. كل الوان الطيف تحيط بوجه الفتى والفتاة .. حمام مضمخ بالعطر والبخور .. جوارى بلون ضوء القمر .. مغانى وضرب صاجات الفرح .. آخر الصور ساحرة تنتظر .

عيناه تحـــدقان فى عالم الألوان الباهرة .

— الامام (على) و (الحسن والحسين)

فى الوسط الامـــام .. على يمينـــه (الحسين) وعلى شماله (الحسن) .. يد الامام تقبض على سيفه ، وعلى البعـــد تلوح غزالة مبتســـمة ، تستأنس بأسرة النبى .

صـــوت العم (أيوب) .

— ضريح مولانا (الخضر) .

انتفض الولد تحت الســـتارة .

الضريح مقـــام تحت شجرة مستكة .. أسفله عشـــب أخضر وزهرة بالوان .. اعمـــدة من رخام كمثـــل أعمدة المسجد القديم .. يلبس المقـــام ثوبا أخضر قشيبا .. على حواشيه نقشـــت كتابة بخط مزخرف بنقط وعلامات (ياخائفا من دهره كن آمنا وكل الأمور الى الذى بسط الثرى) .

سحب العم (أيوب) الصورة .. صرخ الغلام :

— ثبت الصورة ياعم (أيوب) .. لا تجعلها تروح .
— مالكَ يا (على) ؟
— ضريح من هـــذا ؟
— ضريح مولانا (الخضر) .
— هو مات ؟ .. اذن لن يجىء ؟
— سيجىء .
— لكنـــه مـــات .
— ربك قادر يا (على) .

تبســـم الرجل ومسح على رأس الغلام .

حمل العم صندوقه على ظهره متوجها ناحية الطريق .. انفض الغلمان والبنات الا (على) الذى يتبع الرجل حتى قنطرة الخشب .

كان الليـــل يهرول مبهور النفس نحـــو القرية ، والحمام يعود لابراج حديقة الريحان تعبا من طـــول المدار وخيبة الرجاء .

أتت رياح فكنست الأرض وبدت الســماء فى الغسق محمرة من غير ما حرارة .. على جرف النهر يجلس عجوز يغزل بمغزله ويهمهم بموال ذو شـــجن .

(كانت الدنيا تعتـــم وأنا أقف عند القنطرة أسمع وشيش المـــاء والمرئيات تختفى فى عينى .. الرجل البعيد يقف لحظة وينظر ناحيتى، يأتينى صـــوته (روح يـــاعلى) ، وأنا لـــم أكن أميز ملامحــــه (روح يا ابنى الدنيـــا هاتليـــل) .

جلس (على) فوق حافة القنطرة التى تفصل برين ونظر حيث اختفى الرجل ثم بكى بصـــوت ردده الليـــل الوسيع .

الجـواد للصبى ٠٠ الجـواد للموت

الجواد للصبى .. الجواد للموت

عـــن الميـــــلاد :

لكز أخته الغافيـــة فاســـتفاقت تهرش جنبها المكشوف .. حدثها عن ثمرات التوت ، وبيض العشب وقوارب الورق .. حاذر ان يوقظ الجـــدة المنكمشة تروح فى نوم كالموت تحت اللحاف القـــديم .

هم وسار حتى نافذة المقعد العلوى .. راى — ولم يكن يحلم — خلال ضباب الصـــباح المغلل بالق كالحليب ، رأى مهـــرة الدار الشهباء تصهل وكأنها تسبح فى الضباب المغلل ، مسجونة بســـور من حجر ، تدور دورات عصبية ، تنخر دخانا كالغبار .

هبط السلمات مسرعا ، فى ذيله اخته التى قال لهـــا (حاذرى الحجر) .. فردت عليـــه (انها ســـوف تحاذر) .. قال لهـــا (انه سوف يصعد التوتة ويهزها) .. فقالت له (لأ التوت على الأرض غامر) .

جمعا بيضات العشب ، وامتلأت بها طرحة البنت ، فيما كانت كفـــه تمتلىء بثمر التوت .. أنت المهرة انينا متقطعا .. لحظتها لمح فرجها المفتوح يطل منه ظلفان اخضران ، وخطم اسود صغير بينما كان ينساب من الفرج مخاط لزج له قـــوام كثيف ، يمتـــد فى خيوط ممطوطة حتى اســـفل الكفل .

اخـــذ الصبى وارتعش .. كور قبضته وتحرك من جانب الجدار واسقط من راحـــة يده الأخرى ثمرات التوت .. صاح مذعـــورا (المهرة تلد) هوت بيضات العشب من طرف طرحة البنت وتكسرت فيما كانت تجرى نحوه .. اخـــذها من يدها واشار ناحيـــة فرج المهرة المفتوح .. قال لهـــا (انظرى) ولمـــا رأت خطم الوليد، ورأت الحلمات المتوردة بالحليب فزعت وصاحت مستغيثة (الحقونا المهرة تلد) .

حـــدق فى عين الشـــهباء وراعه مدى اتساعهما . رأى اختلاط السواد بالبياض فى حور العين الدامعة .. هتف صارخا (ياربى المهرة تلد) ودار حولهـــا وكانت تهب رياح صباحية اهتزت لهـــا الفـــروع .

صاح باخته (نادى ابوك) ولمـــا كان وحـــده بلا حول ولاقوة صرخ (الحقينى ياأمه المهرة ستموت) .

وكان صوته ينسل عبر الفجوات الطينيـــة يطرق ابواب الدار حيث الأم والجـــدة ذات النظر الشحيح والبنت تندفع ناحية شرق البلد حيث الأب فى حـــوض النجار .. على البنت الآن أن تعبـــر القنطرة . وتقطع حارة البحر وترى طيورا بيضاء راحلة لها أجنحة منشورة وترى الرجـــال يسرحون وترى حجر الطاحون مركـــونا على باب الطاحونة المقفـــل .

هرولت الأم نازلة الســـلم بيدين ممدوتين وراس مكشوف ... رأته الأم وقـــد شمر أكمامه وأخـــذ يشد ظلف المهر الوليـــد الذى ينزلق منـــه منفلتـــا . بينما المهرة الأم تدق الأرض بقدميها . مادة عنقهـــا الطويل . تجأر باختنـــاق تستغيث بالغـــلام وبالأم التى تشارك فى شـــد المهر عبر بوابة الحيـــاة .

أطلت الرأس بعينين مغلقتين ونفرة مبلولة بمخاض الميلاد .. صاح بأمـــه (شدى ياأمه ها هـــو يبدأ الصعب) .. عفر يده بالتراب وأخـــذ رأس المهر فى حضنه وصـــاح بالمهرة الشهباء مســـتغيثا (ساعدينى) فهمهمت وضربت الأرض بقوادم من حـــديد .

انزلقت قطعة اللحم الطرية الى الأرض مستحمة فى مائها معلقة فى مشيمة رخـــوة لهـــا لون الدم .. حاول المهر الوليد النهوض بقـــوائم خضراء ضعيفة لم تســـعفه . فهوى على جنبـــه تهتـــز رأســـه .

حـــدقه بنظرة الاكتشـــاف الأولى وقال لأمـــه (مهر ياأمه .. ذكر .. انظرى) .



تلحس المهرة الأم وليدها الضئيل المرتجف ، والوليد ينفر بمنخرين مسدودين ماء الولادة ، والصبى يدور حول المشهد مفتونا يستحم جسده تحت قشرة العرق ، مستقبلا نضارة هواء الصباح من الامتداد المفتوح لافق صحو على أول النهار وآخر الليل ، صائحا بأمه (هو جوادى وسوف أسميه «عنتر») .

عن الجواد والصبى :

انفلق الصباح واستيقظت البيوت فوق الأرض .. هى الزروع عبر مرمى النظر وبعد النهر تتجعد أوراقها وتطلق لهاثها للأرض المحروثة .

الصبى ذو الجدائل السوداء ، والوجه المدور الباسم ، والنظر الحديد ينهض من نومه يحمل دلو الماء ، يتجه ناحية الطلمبه المدقوقة فى الساحة البرانية أمام الحظيرة العجوز ، يملأ الدلو ويخطو ناحية المهر ابن الحولين .. يراه أزغب حليبيا ، مستديرا وقد استطالت قوائمه وانفرطت عفرته فى كثافة شعر العذارى .. وكأنما فوجىء به يقف مربوطا على طاولة من طين النهر بعينين تحددت سعتهما ، وبخطم ململوم مستطيل ينتهى بشفتين مضمومتين على أسنان قوية .

مسد الصبى ظهر المهر بيد حانية ، فنفر ووسع عينيه ثم شب يصهل .. عاد ومسد ظهره فدار حول نفسه .. خرجت البنت (هانم) وحكت ظهرها بالجدار وقالت له (ماذا تنوى اليوم ؟ .. اصطبح وقل ياصبح) .

عين الصبى فى عين الجواد .. خيوط من الحنين ، ومحبة النشأة ورفقة الحولين .. **حظيرة فى الظلام تفوح منها رائحة الوحل والروث الأخضر وزمتة الحبسه .. هى الجدة تلبذ تحت بطن الحيوان ، فوقها شعلة لمصباح مدخن ، تشد الأثداء الناعمة المدرة بالحليب .. يزحف هوا اليها ويفتح فمه ومن الندى لحلقه يشخب اللبن .. والمهر تحت بطن أمه يمص أثداءها ويدق الأرض بحوافره .. هى الأيام .. الأيام .**

البسه الأنشوطة فشب المهر ناحيـة الشمس التى تحـدق فى عينيـه وصرخت البنت وفارقت الجدار . انحنى يرخى الحبل المشدود ويقترب من المهر هامسـا : هس .. هس .. مالك عنتر ؟ .. مالك .. خائف ؟) .

شخر فأعطاه يده . لحسها المهر وشـد أذنيه .. طبطب على زنده فشب المهر على قائمتيه الخلفيتين .

ومن فرط ما ارتعب الصبى انتذف مصطدما بالجدار ويده تسنميت على الانشوطة .. على صوت هبـدة الولد خرجت الأم عارية الراس مرتاعة .. رأته قرب الجـدار متكوما .. قالت له (أن ماجبت لنفسك مصيبة . وانكسرلك ضلع .. ما أكون «أمينة») .

لن يترك الانشوطة ولن تفارق عينه عين الجواد (أركبك كـل يوم .. مالك حرنان النهارده) نهض ونظف ثوبه وعاد يمسـح ظهر الجـواد ويربت عليـه .. المهر يتشمم رائحة الصبى الذى يخاطبه فى همس .

فى اللحظة التى استكن فيها الجـواد كان قد فك رباطه . وصعد السور الموازى لظهر المهر وجعل يقـول له (هس .. هس) شعر الجواد بحريته حين انطلق للأمام راسما على نحو من ضجيج وصخب ستارة من الغبار تتقمصه رغبة فى الرمح نحو الشمس التى تصهل هى أيضا . يندفع دون تعب راكضا فى الحقول وفى الحارات وعلى شاطىء النهر .

وحينما كان الأب والعم يقلبان (رمية) القمح .. كان الصبى والجواد يخلفان جسر المصرف وينحرفان الى طريق القناة الضيق . كان الأب يقول فى نفسه (كأنه آخر الجياد . وكأنه آخر الصبيان) ثم يصيح فى ابنه (خف عن المهر لتجيب أجله .. واحذر ان تسقيه وهو متعب فربما مشى المـاء الى قـدمه . بعدها ستخسره وتبيعه فطيس لعربجى على باب الكريم بالمركز) .

وكان الصبى منشغلا بمهره وكان المهر يحـدق فى الفضاء وعبر الغيطـان .

عن الجـواد والبـلد :

حيث ان الشمس تشرق من المشارق . وتغيب فى المغـارب .. وان بحـر النيل لم يعـد يطمى وفى شـهر (برمهات) قبطى يزرع القطن .. وفى (بشنس) يضم القمح والشـعير .. وتكون أيـام للحصـاد . وتستكمل دورة تلد سر الخـير وسر الموت .. وأن الحكايات انقطعت من فوق المصاطب وان للبلدة مقبرة للأسـلاف وولى له مقـام ومزار .. وأن لهـا قنطرة من صـخر جبلى لم يعرف احـد من بانيها تربط الغيط بالدار . وتكون مثوى لسـكان تحت الأرض .. فان للبلد مهر رامح فى الفضاء السارى . يتواترون اخباره ويحلمون به فى عز . عـز المنـام .

وليد (نجيه) الجماعة ينام فى ظل شجرة تيـل . على راس غيط قطن .. أمه تمسك خطا . محنيـة الظهر تطـارد اللوزات المتفتحة .. الجواد يرعى على جرف قريب .. يخرج الأسود اللعين زاحفـا . متلوى أملس ناعما .. يسمم اللبن فى الطاجن والطنجة فى الحلة .. هدفه الوليـد الملفوف برقـع قدميه .. يندفع المهر ناحية الزاحف اللعين وحوافره يقطعه .

تجرى (نجيه) وتخطف ابنها وتجلس على شط المصرف.. وتبكى.. هل كانت تبكى رعبها . أم كانت تبكى فرحة نجاة ابنها الغاف ؟

من عنـد قنطرة (السكرى) حتى دكان (عبدالجليل) فـرح ممتـد .. اسبته مغطاة بفساتين ملونة .. «طشاتى» نحاس أحمر بلون شمس العصارى . مليانه بأرز مبيض واقماع سكر وزجاجات شربات فى لون خـدود البنات .. البنات البكر بأثداء جامدة مدورة. وضفائر طويلة كالسلب تنام تحت طرح الحرير والشيلان المزهرة.. انغام للفرح و«مغانى» للبكارة فى هـواء عصارى السـنين .. الجـواد أول الموكب وآخر الموكب .. البسوه كسوة من قطيفـة مطرزة بخرز ملون وترتر أبيض يبرق .. الكسـوة مشغولة بخيوط بهيجـة . رسم للأهلة ونجمات آخر ليالى الصيف ونخيل بسعف اخضر . وطيورا تطير فى براح الكسـوة القطيفة .. دقات صاجات وانغام مزامير (المزيكة) النحاسية المؤجرة من المركز تجعل المهـر

يرقص فى السترة القطيفـــة ، على ظهره الصبى ذى الجـدائل . وأمامه خلق صــاخبة وخلق ترفــع الشوم وترقص مع الجـــواد الفارس .

الشيخ (راغب الصفطاوى) السامر القديم .. فاتح المندل وقارىء الكف .. رابط العريس فى دخلته .. ومكره العروس فى عريسها .. يلبس ثوبه (التوتل) الناسل ويكبس فى رأسه عمامة وسخة تغطى شعرا أشيب .. يقف تحت ظل سنطة عجفاء وينظر المهر الرامح ويصيح (أقطع ذراعى ان ما كان هـــذا المهر وهـــذا الولد من نسل الشياطين) .

العم (ســـيد مرسى) الطيب الصـــالح .. الأمين على الناس وعلى اسرارهم .. المصلى الفروض جماعة مؤذن الفجر فى عز ليل طوبه .. يسند رأسه على منبر الجامع ويتطلع بعين ساجية يشع منها الصلاح والتقـــوى ، ويشير بيده ويقص حلمـــا يأتيه بعـــد ان يتوضأ ويصلى وينام .. (هو المهر يأتى مع القمر ، فى هـــداة الليـــل حينما يكون الســـكون .. حيث تخلو الحارات والازقة من ناسها .. أراه انا العـــارف بما أرى . عبر هـــالة من نور على ظهره خرج بعينين .. عين فيهـــا رزق معلوم ، وعين مليئة بحبة البركة .. يقف أمام ابواب الدور ، فتنفتح .. تخرج نسوة متشحات بالسواد .. يغرفن من الخرج ويمـــلأن مخالى معمولة من قماش الخيام .. تكتفى النسوة ولا تنقص عينى الخـــرج الملآنة بالرزق المعلوم وحبـــة البركة) .

وفى ليـــال كثيرة متتالية كان الصبى يمتطى ظهر المهر بعـــد ان ينام الناس ويهجعون .. وكانت الشوارع والحـــارات خالية فيما تبدى البلد تحت الســـماء كامرأة متوحـــدة ، مهجورة .. كـــان وقع حوافر المهر كقرع طبلة ، وكانوا يتسمعونها ، تأتيهم عبر منافذ الحلم ، حيث لاتكون الصحوة مؤكدة وتتهيأ النفس لاستقبال هبوط الروح من عوالم أخرى غير موازية لعـــالمهم ساعتها يظل التساؤل مستقرا بالضمير الغـــاف .. عن سر هـــذا الرباط المقدس الذى يربطهم بالجـــواد ومن ثم الصبى .

عن المـــوت :

(١)

غادرت العمــه (الفية) فرنهــا الواطىء . محــدقة فى نــار المحمة التى لم تهمــد بعــد .. القمت المحمة الحطب الصــائف وتمخضت بشاشها من أنف مدبب كمسمار .. نفضت ما علق بثوبها من دقيق الخبيز .. ضربت جــدارها بيدين عجــوزتين وصرخت وحدتها (متى تأتى شياطين الجن ؟) زام الهواء فى عُش السطوح .. عبق الدخان واندفع من (المحمة) ملتفــا ، يدور صــاعدا السطوح من المنور الضيق متوزعا على الدور المجاورة .

وجهها الكالح العجــوز به فم خال من الأسنان ولهــا عينى هرة هائجــة تنظر بهــا بعيــدا .

(وفى الليــل تلتف بسوادها وتخرج مكفنة بالظلام ، لا تنظر خلفها ولا تلقى السلام .. تكنس العتب وتتلو الطلسم ، وتدفن الأعمال فى فتحات المقابر ، وعلى جسر النهر تحادث القمر) .

« ملعون الأب ، والأم ، والبنــات البكارة »

قالتها وفتحت (قاعة) معاشها ، وبرقت عين الهرة فى الظلام .

« جارى ملعــون « سلامة » وأولاده .. وجــارتى ملعــونة « أمينــة » زوجتــه » .

صعدت سلم الطين تكحت كآبة سلمها بأظافرها .

« (عبد المولى) تدهسه حوافر فرسه الذى ســيدفنونه جيفة »

القمت «الوقيــد» لفرنها فتوهج بالنار .. سمعت على البعد ركض الجــواد الجامح فسارعت تصعد سلمها .

فى الزمن الذى كانت تقف فيه العمــة (الفيه) على سطح دارها شامخة الراس ، مفكوكة الشــعر الذى تعصفه به ريح مفاجئة ،

تهب من ناحية المغارب . تحدق بعين القط — عينها — كان الجواد وسط الساحة . وفى اللحظة التى التقت العينان — عين الجـواد وعين العمة — صهل المهر مستغيثا . وشب على خلفيتيه ثم هوى على جنبه فى ارتطام مروع ولم يقـدر على النهوض .

انفجر ضحك كانه السـحر . وكانت العمة هى التى تقف فى وجه الريح على سطح دارها قبـل المغـارب .

(٢)

فى البدء ضرب الجـواد جدار الحظـيرة براسه .. بعـدها تتابعت نطحات الجـدار حتى تورمت راسه .. تنهـد اهل الدار حسرة . وبكى الصبى تحت الغطاء . وحبست البنات بالغـرف واقفلت . هزل الجـواد وصام عن الزاد ، وفكوا قيوده فاستقر بركن الحظيرة ينطح الجـدران .

ينهض الصـبى ويجلس تحت بطن الجـواد وبقلبه شـعلة تضطرم .. يسوى له (عراقة) من خيش يلتف بها جسده المحموم . والصبى ما برح يستعيد ايام العـدو نحو الشمس وفى الغيطان .

خرج من الحظيرة واستقر على عتبتها . نصفه فى النور ، ونصفه فى الظلمة .. بكى جـواده الذى يشيخ فجأة ، والواقف فى ظـل الموت .

اذن العصر وبعـد ان ام المصلين الشـيخ (حسن النواوى) فقيـه البلد العـارف بالله ، سحبه نفر من الناس .. مشـوا بحارة (الساقية) الى زقاق (البداروة) وعبروا قنطرة الجامع حتى وصلوا الدار .. اخـذ الصبى يد الشيخ الكفيف فمسـح بها راس الجواد وظهره .. تلى المعوذتين وآية الكرسى والصمدية وطلب للمهر الشفاء .. أمن الناس وراءه ثم سحبوه ومضوا من حيث اتوا .

حضر (محمد فرج) جساس المواشى .. فتح فم المهر وعاين لسانه ، وشد جلده ، ورأى فى العين حمرة ، ومسح بحر العرق عن جسد الجواد ثم وجه الكلام للأب (الحصان تار) .. وأمر

نساء الدار أن تغلى فول ورجله خضراء ، وتخلطه بشيح ، وبذر كتان وأن يسقوه للجـواد على ريق النوم .. خرج من الزريبــة ونظر للجميع وقال (ربنا المنجى) ثم رفض أن يتعاطى أجرا .

من أول الزمان لآخره ، يأتى الليــل ، فتدور الوطاويط وينعق البوم ، ويفر فأر من كوم سباخ لجسر مصرف ، وينبح كلب بــلا صاحب أو مأوى ، ويمضى الليــل ، وتلم البـلد شمل النجــوم ، ويشتد حصار الوقت .

(أمينة) الأم .. ســيدة الدار .. الربة المقيمــة على رأس العالم الصغير .. ترتب فرش العيــال ، ثم تحلب الجاموســة ، وتقطع الجبن خرط صــغيرة بحجم راحة اليد ، وتشــعل مصباح الوسط ، ومصباح الباحة ، بعــدها تنام الدار وتهمــد .

تسحب الليلة (شالية) من فخار قديم ، تملأها بتراب (الفرن) .. ترص القوالح وتغذيها بورق (غلاف) الكيزان .. تعلو النيران ثم تهمــد الألسنة ولا يبقى ســوى الجمر .. تحمل (شالية) النار وتخطو ناحية الزريبــة .

تبسمل وتحــدق فى الظلام الذى يغيب الجــواد الرهوان .. تخرج قطعة (الشبة) التى تلمــع فى وهج جمر النــار .. هى والحظيرة والجواد ، فى قلب الليــل .. تخطى العتبــة وتواجــه المهر المريض بداء الحسد والكراهية .. يقف الجواد فى ضوء لمبة الجاز مطرقا ، عرقان ينطح الجــدار (مالك ياعنتر ما الذى جرى لك ؟) .. تضع قطعة (الشبة) وبخور الصندل فى الجمرات .. تسمع نشيش حريق المــادة فى صوت منفحم ضرير .. يعلو دخان الحريق ويعبق فى تعريشة سقف الزريبة .. تدور بالاناء حــول الجــواد الذى استنشق رائحة البخــور .

« رقيتك واسترقيتك من عين حسود شافك ولا سمى »

استوت (الشبة) امرأة عجوز ، متفحمة تلتف بالسواد ولهــا عيون هرة .. هتفت الأم :

« هى .. ساكنة الدار الواطية .. جارة الشؤم »

بكت الأم عجزها عندما نظرت الجواد غارقا فى الصمت والعرق .. أطلقت صوتا كالعديد :

« قلت لك ع الجسر ماتمشى ... عين الحسود تضرب ولا ترخى »

رجعت بظهرها عندما رأت الجواد يرقد ملقيا بجسده الى الارض ، مادا عنقه كالذبيحة وقد غرغر ، واتسعت عيناه وبدتا فى الضوء الشحيح منطفأتين .

حاذرت الام أن تصطدم بالحجر ، وجزع التوتة ، والسور المهدم وطلمبة الماء ، وخافت أفعى الجحور التى تعرف أنها الآن تدحرج جوهرتها امامها زاحفة من سطح لسطح .

دخلت على الأب الراقد فى أرض (المندرة) .. قالت له «المهر يموت» .. قام ومسح وجهه واستعاذ من الشيطان بالله على الموت المفاجىء .. قال لها (انه سوف يذهب غدا للمركز ويحضر طبيب الصحة البيطرى) قالت له (أن لايتعب نفسه فقضاء الله نافذ) رد عليها (سأسعى وعلى الله العوض) .

فى النهار حضر الطبيب المداوى .. كشف على المهر وأخبرهم (المهر مريض بمرض معد ولابد من اعدامه) .

(٣)

ما الذى يجرى اليوم فى البلد ؟

كأنه يوم القيامة .

كل تلك الصفوف من الرجال والنساء والعيال ، تنسحب من الأزقة والحارات الى طريق المدار .

من سرب خبر فرقة الاعدام الى كل البيوت ؟

زوج من العسكر وصول ، وثلاث بنادق لكل بندقيـــة روحين ، موكلون بخطف روح المهر .. يخطون بالقرب من قنطرة المشروع، ويبدون فى ملابسهم الكاكية الصفراء كسهاوى الكلاب .

يطول من خلفهم صف الرجال والنساء والأطفال ، يثيرون التراب، يفزعون الطير المهاجر ويســدون عين الشمس .

من يحاول أسر روح الجـواد الرامح ابدا فى الغيطان ؟

بكت بنت قرب النهر ، وألقمته حجرا فاتسعت دوائر المـــاء .

المدار فى أرض (نعمان) على شاطىء النهر ، تحت بطن ساقية قديمـــة خربة .. تمتـــد الأرض البور سبخة ومهجورة ، تنبت فى جنباتها نباتات الشيطان ، وتعمرها ديدان حمراء شرهة .

الجـواد ينتظر الرحيل حيث القطعان الحرة فى السماء .

قال العم (لنبدأ ..) .. تململ الأب ومضى يشـــد حبل التيل ويلفـــه حـــول ارجل الجـــواد المستسلم .. دار الأب بالحبل على الجسد ، فارتجف الجلد بعد ان شعر بخناق الأعنـــة تجز عليـــه

رمى الأب بطرف الأنشوطة الى العم فأحكم وثاقها على كاحـــلى الجـــواد ومتنهـــا .

حث الصول ـــ ذو الوجه اللحيم القاسى ، والشارب المفتـــول والأزرار النحاسية وصاح (أسرعوا ..) رد الأب الذى يشـــد الوهق حول رقبة الجواد (حاضر ..) ودار حول الجواد يساعده العم والأيدى العفية .. وفى اللحظة التى قال فيها الصول (شدوا .. ارموه ..) كان مهر الأيام الماضية يتهـــاوى ، حيث انقلبت الوجوه ، وتطلعت اليه العيون من فوقه .. اهتز وحاول النهوض لكنـــه لم يقـــدر .

وجـــوه لنساء غامضات العمر تحـــدق فى الدائرة .. أطفـــال لاتلعب فى الزحمة حيث شدها المشهد فوقفت متراصة ، مشـــدودة

يحبل الخـــوف .. رجال هجروا البيوت والغيطان فى مشهد وداع المهر الأخـــير .

وحـــده الصبى (عبد المولى) ينظر مهره الراقـــد على جنبـــه بعين منتحة ، وذاكرة مطفأة .. مشى حتى أبيه وشـــده من ثوبه وقال له مسترحما (بلاش ياآبه ..) .. نظر اليه الأب ولم ينبس فاستغاث بعمه وارتمى فى حضنه باكيا .. صرخ الصول (ابعدوا الولد ..) أبعـــدوه خارج الدائرة وبقلبـــه تنتفض أيـــام الركض ونهارات البركة .

صرخ .. (بلاش يابه ..)

صاح الصول (استعد ..) فارتفعت أشداق البنادق بظـــلام يغشى العيون .. تحـــدد الهدف وسط الرأس وعند حبة القلب.. قال صوت الصـــول .. (اضرب ..) فانفجر صوت الطلقـــات مدويا .حفرت فى الرأس وفى القلب حفرات غائرة ، يتدفق منها دم يشق له مسارا فى خطوط على الأرض حيث بلل الأقـــدام وخضب الثيـــاب .

تصاعدت من فم الجواد آهة آدمية مغللة ببخار حار .. صرخ (عبد المولى) وتشبث بصدر أبيه .. فيما كانت بالفضاء العـــالى تحـــوم غربان وحدآت ناشرة أجنحة تدور ، مدفوعة بحدس فطرى نحـــو رمم الجسور ومهاوى المرابط ، نعيقها المبتهج فى قلب الصبى الحزين اعـــلان ببدء الوليمـــة المؤجلة .

مدينـــة المـوت الجميـــل

مدينة الموت الجميل

لم يكن ذلك النهـــار مفعما بالحنين ، بالقدر الذى الفه ، حيث مرت ايامـــه التى خلت .. كانته شمس آخر النهار تبـــدو له وهى تغيب كعين معتمـــة فى عمـــق جفنات العراغين .. خاف الليـــل وخاف عصف الهـــواء وخاف من صوت البحر الذى مايزال قائما .

أشعل سيجارته واخذ منها نفسا عميقا طرده من صدره فاختط مسارا جليلا كخيط مهاجر .

(وكنت من زمن ليس ببعيد أقف بالقرب من السور أنظر الى البحر حيث تتدافع موجاته الى الشاطىء فوارة بمـــا تحمله من زبد ، ولم أكن أعيش فصـــول الســـنة بتتابع دورات الأيام ، وفى لحظة ســـقوط ضـــوء الشمس على الحديقة بطول السور كنت أقود نفسى المتعبـــة صاعداً درجات المنزل حتى أصل الى السطح وكنت أرى فيمـــا أرى ســـيدة تلبس السواد تهبط المنحدر وتظل تنظر عبر البدر وكأنها تنتظر شخصا ما ربما يأتى به) .

سمع دقات الساعة الخشبية فى المنزل الخالى .. خمس دقات وعته ونظر العقرب المنفرج ولم تهب من حديقة الدار العتيقة رائحة الورد ولا فارقته ظلال الجـــدران .

بيت منعزل يحوطه سور من حـــديد مدبب .. للســـور بوابة بألوان وعطور .. للبيت سقف من قرميد أحمر يتحدث فى ليـــالى المطر وحجرة استقبال واســـعة وغرف معتمة عديدة .. فى آخـــر الحـــديقة يوجـــد الملحق القـــديم .

(كأننى سمعت طرقا على البـــاب)

بالأمس خرج من حجرته وفى الصالة الواسعة واجهته مرآة باطار نحاسى من طراز بعد زمنه ورأى فيها نفسه تبدو تحت الضوء الأصفر تراعه شكله فأطفأ المصباح .. خرج من باب البيت الى الحديقة..

وسط شجيرات الورد يأتيه عبقها وكذلك رائحة عشب الأرض قبل المســاء .

يسير على ممشى من العشب على يمينــه فسقية المياه الرخامية، التى تندفــع مياهها عبر أنابيب ضيقة فينثال ماؤها على تمثــال لسمكة ذات حراشف .. ضباب خفيف يرقد فى شكل سحابة وكأنه سديم هابط من الأفق .

هــو الملحق مايريد .

وضع المفتاح القصير فى فتحة البــاب ، وسمع تكة لسان الطبلة فتسارعت دقات قلبه .. انفتح البــاب على ظلمة ، وزكمت انفــه رائحة رثة مكتومة لأثاث مكوم .. مد يده وأشعل المصباح ، وكانت يده الاخرى تستكشف المكان .. سمع فرار الجرذان الى مخابئهــا وبدت له الحجرة كخزانة قديمــة .

الزمن المحبوس وسط ركام الأشياء والحجرة غاصة بتحف لاعمر لهــا .. تمثال مقلد (للأسير المحتضر) الذى حول جسده الحبال بينما يده ترتفع حتى رأسه الذى يسقط على كتفه ناحية اليمين وعند قدميــه تتشكل كتلة من الصخر كأنها القدر بعينين مفتوحتين على الغيب .. سلع قماشية من طرز قديمة معلقة على الحائط وقــد لوحتها الأيام باخضرار زرع ذابل .. محارات بحرية ملونة بألوان وجوه الموتى .. تماثيل فرعونية ، عليها تراب يبــدو خلف اريكة ، الالــه (أوزوريس) يلتف بثوب الكتــان ، تبرز منــه يده ويقبض على عصا الراعى الصالح .. أيقونات مطموســة اللمعــة تحت ركام فوضى حجرة الملحق .. لوحة لنساء بلا أثداء يطاردهن نسر أســود ناشرا جناحيــه فى الضباب والنســوة تخرج من أطــلال صحراوية متجهات الى البحر .. بيانو بغطاء أسود مقفول ومنسى .. كراسى فوق بعضها قــد اهترات وبان تنجيدها الذى نســلت خيوطه القطيفة .. على الحيطان صور لعرافات وأضرحة لأولياء .. صبيان رابضه ، ولوحة (يوم الحساب) بعنفها وضراوتها كأنها لوح من سفر الرؤيا .. فوق ترابيزة مستندة الى الجدار (بيانولا) صغيرة بنابض على شكل نجمة الأيام السحيقة ، تقف على أرجل

أربعة من نحاس أصفر ، على غطائها رسم لثلاثة طفلات يابانيات يلبسن كيمونات حمراء ويرشقن فى شعورهن ثلاث زهرات ملونة .. امتدت يده وملأت النابض وفتح غطاء البيانولا . فانسابت فى فراغ الملحــق موسيقى متقطعة بنغم رتيب موحـــد الايقاع . له مدى جليــل مساو للزمن الوهمى الذى يحياه .. لمح على الجدار الأيمن الصورة الذى جاء من أجلهـــا .

(البنت .. والسفينة .. والنورس ..)

كانه يعيش النشوة التى يحملها الريح من البحـــر عبر تخـــوم الفجوات من ملايين السفين والتى تأتى الى مدينــــة لم يعـــد يفهم سرها .

اغلق البيانولا فصمتت موسيقى الايقاع الموحـــد وتقـــدم ناحية الجدار .. مد يده وأنزل اللوحة **(كانما البنت قد ذعرت .. وأن السفينة تمتلأ ذأوعهـــا بالرياح .. والنورس يطلق استغاثة) .**

اطفأ المصباح فغابت الأشياء فى الظلمــــة الكابية .. خرج الى ممشى الحـــديقة يحمل تحت ابطه اللوحة ، ولم يكن الليـــل قـــد أتى بعـــد .. قطف وردة وألقاها لمـــاء الفســـقية الذى دفعهـــا خفيفا .. سار صاعدا درجات المنزل .. دخل حجرة مكتبـــه ذات اللون البنى ، وعلق اللوحة تحت المصباح الأمامى ، وظل يتأملها .. ما يروعه عين البنت الواقفة عند مقدم السفينة والنورس المستغيث يرف بجناحين عاجزين مستقبلا عاصفةوليـــدة .

(كأن الطرق على بابى)

تشاغل بالنظر الى اللوحة لكن الطرقات كانت تستحثه ، تناديه .. تولد لديه شـــعور بأن لصوت الطرقات سر مبهم كأنه يشـــده الى البـــاب .

سحب (روب) وضعه على كتفه وخرج ، على بسطة الســـلم حدق فى فراغ أفق صحو لمغرب قادم .. فتح البوابة المرسوم عليها التنين الذى ينفخ النـــار .. رآها تقف بالباب بملابسها الســـوداء



وطرحتها الملتفة بوجه كالقمر . . فنظر الى وجهها ورأى مساحة الأسى والحزن وقد اكتسيا بغرابة أخافته . . شعر ببدنه يرتعش **(هل هى السيدة التى أراها من السطح تهبط المنحدر وتظل تنظر الى البحر وكأنها تنتظر شخصا ما ربما يأتى من الموج ؟) .**

— هل جعلتك تنتظرين كثيرا ؟

(ربما فى الحلم . . فى حكايا الكتب القديمة . . بالله ياسيدتى لا تلاحظى هروب الدم من وجهى) .

— اى خدمة ؟

تنظر صامتة وبسمة خفيفة على شفتين قرمزيتين ، تلوح وتختفى ، يحدق فى العينين الغامضتين اللتين لهما وميض مخيف مع البسمة الصامتة .

— هل استطيع شيئا لك ؟

خرج صوتها متقطعا :

— أليس هو العنوان ؟

بدت السماء بحمرة الشفق كجرح . . **(لم يحدث أننى رأيت الشمس بهذه الحمرة من قبل) .**

— عنوان من ؟

— اننى أبحث عنه منذ سنين . . هل رايت السماء بهذه الحمرة من قبل ؟

— لا . . الليل داخل . . اى خدمة ؟

نظرت اليه بثبات . . قالت :

— لكنهم قالوا انها نفس المدينة .

— أية مدينة ، وأى عنوان ؟

— **« مدينة الموت الجميل »**

ارتعد .. هاهى ذى طيور سوداء تعبر الأفق على البحر .. ترف بجناحاتها هواء يعلو فوق شوارع خالية ، يزوم بأعلى الشجر بهزيم له صوت .. قالت :

— اذن فأنت لاتعرف « مدينة الموت الجميل » ؟

شعر برعب غريزى ، والعينان تفيضان عليه وتخوفه .. استند لبوابة الحديد حيث تساوى قلبه وفم التنين نافخ النار .. مدت يدها وأعطته ورقة فضها وقرأ .

(مدينة الموت الجميل .. شارع البحر .. فيلا النورس)

قالت :

— هو العنوان ؟

(وكنت فى الأيام التى أمضيها فى الملحق — خزانة الذكريات القديمة — أسمع أصواتا فى الجنبات وكنت أرى الظلال تتقارب وكأنها تتحادث) .

قالت :

— أليست هذه فيلا النورس ؟
— نعم هى فيلا النورس .
— والشارع أليس هو شارع البحر ؟
— هو كما تقولين .

نظرت الى البحر وقالت :

— نفس السحب ، ونفس الموج ونفس المنحدر .. اذن هى المدينة وأنت تعرفها ؟

— أية مدينة ... لم أعد أفهم ؟
— « مدينة الموت الجميل »
— ياسيدتى لايوجد مدينة اسمها « مدينة الموت الجميل »
— لكن .. أليست هذه فيلا النورس ؟
— نعم .

— اذن فأنت تعرفها ؟
— أعـــرف ماذا بالله ؟
— تعـــرف البنت .
— البنـــت
— نعم .. البنت .. لقد كانت ترتدى ثوبا من الدانتلا الخضراء وكانت تقف عند مقـــدمة السفينة وتحادث النورس .
— لا أعرف ياسيدتى عما تتحـــدثين .
— لقـــد اخـــذها منى وسافر .. بعـــدها لم يعد .. من زمان وأنا أجـــوب المـــدن بحثا عنها .
— عن مـــاذا ؟
— عن المدينـــة .

اتعسه شحوب وجهها المفاجىء ، واحساسه بالسقوط فى فـــخ الأشـــياء التى تبدو له خاطئة .

قالت :
— اننى ابحث من سنين .
— ياسيدتى .. هـــذه ليست مدينة للموت ، ولايوجـــد بنته ولا نورس .
— لقـــد كانت فى عمر الشـــباب .. لها شـــعر فى لون البندق ووجه مثل وجهى .. انظر ولهـــا عينان لوزيتان .. كانت لحظة أن تبتسم تفيض الشمس وكنت أرقبها وهى معـــه .
— معـــه .. مع من ؟
— البحـــر .

اختلطت عليه الأمور .. عذبته اللحظة وأحس بأسره .. كانت يده تقبض حـــديد البوابة بعصبية وكانت دقات قلبه تتسارع .. أراد أن يتكلم لكنها قاطعته :
— ظننتك تعـــرف كل شىء .

بكت فجأة ، وعـــلا نشيجها موازيا للرياح التى بدأت تعصف .

رجعت بظهرها مركزة عينيهـا فى عينيـه .. عادت عجلى .. كان وجهها مصفرا كأنما هى للتو عائدة من شوط بعيـد .. وقف جامدا كتمثال « العبد الأسير » بملحق الدار .. هى على البعـد يعلو نشيجها .. دعاها للدخـول فامتنعت وظلت واقفـة ترقب بوابة الحـديد .

أغلق البوابة وعـاد الى مكتبه .. أشعل سيجارته وأخذ يطرد الدخان بعصبية وخـوف .

فجأة وبلا أدنى توقع .. فى اللحظة الموازية للانتباه ، وقبل أن تدخل فى دائرته المروعة حيث يكون الذهن أقرب الى حالات — أقصى حـدود حالات — التركيز بالوعى وبالمشاعر .. فى تلك اللحظـة اصطدم باللوحة المعلقة .. مساحات هائلة من البحر .. سفينة تبحر الى لا مكان .. وبنت تلبس ثوبا من الدانتيـلا الخضراء .. وطائر النورس يطلق استغاثته الأخيرة .

أحس بقلبـه ينضغط تحت ثقل . والريح تصـفر فى فجـوات الشطآن البعيدة .. هل هى كتب الحكايا .. يشـعر بوجوده فى الزمن المحاصر والذى لايمكن أن يخطئه .. تلك هى الأشـياء التى يألفهـا ويعيشها ويعشقها بخياله .

هل هى الصورة وقوس قزح ؟ .. أم انه حلم فى القلب من زمن بعيـد ؟

لم يعـد يدرك .

حدق فى اللوحة بعينين مفتوحتين ذاهلتين .. دارت عيناه حتى وصلت أسفل اللوحة ، فوق الاطار الخشبى ، وجـد حـروفا من أبجـدية منثورة ، متآكلة وقديمـة .. كأنها لغة مهجورة ، ميتة تخرج من كتاب تليد .. تمعن الحروف وظل يجمعها ويرتبها .. انصعق عند فهم المعنى الوحيد المستحيل « مدينة الموت الجميل » .. ارتج ، وجـرى ناحية النافذة يبحث عن المرأة .. لكنه لم يجـد سوى البحر .

خـط الاســـتواء

خـط الاسـتواء

(١)

عكس الزجاج الملون الجدار القديم .. لم يعكس الغيمة ولا عكس برد ديسمبر .

رايته يزحف بجوار الجدار .. كانت ركبتاه تحملانه بينما ظهره مقوسا ، وتبدو قدمه من تحت ثوبه متورمة ورأسه منحن تجاه الاسفلت .. كان يقف خلفه رجل كانه يسوقه ، وكان يجلس على مكتب قديم شخص غير واضح الملامح يشعل المصباح فى عز النهار.

عندما حركت الزجاج الملون ضاع منى الرجل الذى يجلس بجوار الجدار ، ثم ظهرت بعد ذلك فى زجاج النافذة شرفة مملوكية كلحت الوانها .. كانوا يقولون عنها أن الوالى التركى يجعل الناس تتدلى منها رقابهم بينما رؤوسهم محنية الى اسفل .. بعد ذلك ظهرت المئذنة والحى القديم وناس هذا الحى وطفل صغير يبكى ، وبجوار هذا الحائط امرأة تنوح .

اقفلت النافذة وعدت الى المرتبة القطنية المفروشة على الأرض .. جاء من البعد ، مع الهواء صوت آدمى :

— يا الله يا ابراهيم .. النهار فرغ .

فكرت اول الأمر فى امتداد هذا الصوت ، فى اتساعه وشموله، فى هذا القدر الهائل من الونس الذى بعثه فى نفسى .

بحثت عن المسمار المدقوق اسفل الطاولة الخشبية المثبتة اسفل الجدار وعالجته حتى انتزعته وخلف الباب الحديدى الموصد حفرت كلمات (**لايستطيع أن يجعل منى الآخرون الا ما أريد أن أكونه أنا ، لذا محتم على أن أرى زرقة البحر والأسماك التى تسبح فيه**) .

من فتحة البـــاب هبت برودة ديسمبر .

(٢)

قلت للرجل الجالس قبالتى على المكتب المضاء فى عز النهار ، والذى يقف بجـواره الرجل الذى يسوق الناس :

— اننى أشعر باختلاف الأزمنـــة . وتغير الفصول ، وأشـــعر بسقوط الثلج خـــلال العام فى مدن أخرى غير هـــذه المدينة، وارى بقليل من الود كثيرا من الجثث التى ماتزال دافئة .. تنام فى هدوء الموت على ذلك الثلج المتجمد الذى يتســـاقط على مدار العـــام .

قلت له ايضا :

— أن هـــذه الجثث لم تأخـــذ وضعها النهائى نتيجة للحرب . ولكنها أخـــذت حالتها الراهنة بسبب فســـاد الهواء وتلوث البيئـــة .

(٣)

كنت أنا وهـــو نقترب من «الهدار» الذى يعلو صـــوت اندفاع المـــاء فيـــه .. وكنا نصعد المنحدر الترابى فى مواجهة الريح التى تثير التراب والغبار .. كانت خلفنا القنطرة الخشبية المقامه على النهر وحقل التين الشوكى الذى يحيط مقابر البلد المواجهة لأرض «الوسيه» وكانت تلف المقابر سكينة ابدية بينما صـــوت وشيش المـــاء يعلو على صوته الذى كان يرفعـــه والذى كان يضـــيع فى صوت «الهدار» .. ومع أننى رأيت الأشجار والنهر والمقبرة ودخان الكوانين ، وسمعت صوت القطار الراحل الا اننى لم اكن افهم مايقوله وكذلك لم تساورنى لحظة شـــك عندما رأيته يتجرد من ملابســـه انه سيلقى بنفســه فى «الهدار» لكنه فعل حتى فى اللحظة التى استنجد بى فيها لم أستطع أن أفعل له شيئا .

(٤)

(اننى بالضرورة لا أرى تغيرا ملحـــوظا فى كل الأحـــوال .. ففصل الخريف هـــو نفسه فصل الخريف والصيف هو الصـــيف

وكذلك الربيع والشتاء ، ورغم تعاقب الفصول داخل الزمن الواحد الا انها — تلك الفصول — لم تختلف عن بعضها كثيرا ومنذ وعيت .

ذلك اننى قبل هجرتى الأخيرة والتى امتدت سنوات فى الزمن الواحد لم يكن اليهود نراهم فى شوارعنا ، لكنهم الآن يجيؤون ويذهبون بحريه مطلقة وكأن البلد بلدهم ، وبرغم أن هذا الوضع يزعج الناس لأنهم لاينسون كل الذكريات الطيبه بدرجة كافية وخاصة مع اولاد عمومتنا وبرغم كل ذلك مازال الفصول تتعاقب وكذلك مايزال الناس يتناسلون بالحرية المطلقة ذاتها » .

(٥)

قال لى انه يريد وقائع محددة ولا داعى للسخرية منه بهذا الشكل المزرى . وانه لايفهم الكلام الفارغ الذى ادعيه عن فساد الهواء وتلوث البيئة .

(٦)

ركزت الزجاج الملون على الساحة المقابلة .. ظل الجدار .. المكتب المضاء فى النهار .. قبة المسجد القديم .. شق فى واجهة البناء يتعرج من اعلى ولا يستقيم من أسفل .. رجل بدون ملابسه الرسمية تلمع صلعته .. اشخاص يجلسون فى الشمس امام الأبواب يكورون ذكرياتهم ويلقونها فى وجه بعضهم البعض .

كان الرجل الذى يجلس بجوار الجدار ، والذى يعكس صورته الزجاج الملون ويفرد رجله اليمنى على طولها بينما كانت رجله اليسرى تضمها يده .. ولم يكن يحس هبات الهواء ولا البرد المعادى .

تأملت زجاج النافذة فلمحته يبكى ، ورأيت دموعه فى الزجاج الملون لها لون الدم الاحمر والآخر الذى يجلس خلف المكتب المضاء يفتح فمه بعصبية لكن صوته لم يكن يصل الى .. عندما استدار الرجل الذى يعطى ظهره للحائط رأيت ظهره بكثير من

الفضول وقد تمزق قماش ثوبه فى شكل خطوط متقاطعة وبان لحمه من خلال الخطوط المتقاطعة ، وقطع من هـذا اللحم مهروسـة فى شقوق ثوبه المقطوع .

(٧)

طافت بالشوارع جرافات ثلجية كانت ترفع الجثث الممدة على الأرض وتضعها على (ترلات) معدة لذلك الغرض .. كانت الجثث تثير الفزع فى الذى لم يتحـول الى جثة بعـد ، وبرغم كونهـا جثث الا ان ملامحها ماتزال تحمل سيماء التعب والغضب .

كانت الشمس حارة تتعامد فى الظهر على خـط الاستواء ملتهبة بدرجة مروعة تسقط على النخيل وأشجار السرو والموز البرى وكل تلك النباتات الشيطانية الملتفة فى أدغال الغابة .. كان وهج الشمس يخطف البصر وصـوت يطن فى الآذان التى أصابها الوقر ، حيث النهر القـديم فى دوران الفصول يعكس وهج الشمس الحادة .

(٨)

استنفرت الحرارة قطعان الفيلة البيضاء البائسة ، فأخـذت تعـدو بشكل كامل الجنون نحو النهر المتوقف عن الغيضان .

كانت فى طريقها تسوى كل الأشياء بالأرض .

الصبى فوق الجسر

« فى أحد التواريخ قبض الملك
أحد الطيور وأمر أن يمسك
فى قفطان من الجلد »
« السهروردى »

الصبى فوق الجسر

ها هو يستقر أعلا باب الدار .. بجناحيه المفرودين ، المغبرين بالتراب القديم .. ومنقاره الأحمر النهم .. يتجه نحو الأرض السبخة ، الناشعة بالأوساخ وبقايا الأشياء الرثة .. **(من الذى جلبه من البلاد البعيدة ، ودق بجناحيه المسامير .. هناك فى وجه الشمس ؟ .. لم أعرف .. أنا ذلك الصبى الذى تحيرنى أبجدية الأشياء ؟)** .

قال لى أبى : أن جدى كان قد صاده . وانه قد عاد به بعد فوات المواسم ، وان جدى حبسه فى غرفة الدار العالية .. وكان الطائر لايكف عن العويل .. وظل يرف بجناحيه الاسطوريين فى فراغ الحجرة وكانوا يسمعون هبات الهواء .. وكانوا خائفين .. وكنت لم اولد بعد .. وكانت الأرض غير الأرض .. وكانت دارنا على حدود العمار .. تحوطها أشجار زيتون خضراء داخلها حديقة تثمر بلا أوان .. بقربها ساقية عتيقة الطراز ، من الخشب كفت عن نتح الماء وأصبحت علامة على المكان والدار .. وكنت مشدودا الى الطائر الذى لم أكن أعرف ان كان حيا أو ميتا قال لى أبى : انه فى اليوم الذى مات فيه جدى مات الطائر ولم أكن أصدقه .. وقال لى أيضا : انهم لم يروا طائرا مثله ولم يكونوا يعرفون من أى البلاد صادوه .. وكنت كلما خطوت الى داخل الدار أحس به فوق رأسى .. وكان يدوى بقلبى عويله .. وكانت مساحات هائلة من الشجر فى الليل تكسوها ظلمة كظلمة الآبار المحفورة عند نهايات العالم .. وكنت وحدى أسير مخترقا الشجر ، تائها عن الطريق باحثا عنه بعناد طفولى ورغبة حميمة فى الوصول .. وكنت أراه على البعد — ذلك الطائر ذى المنقار الأحمر النهم — ناشرا جناحيه عند النجوم .. وكانت عيناه فى عينى مستقرا فى طيرانه الوحشى .. وكنت اخاف منه وأستند الى جذع احدى الأشجار العتيقة وكنت أبكى .. وكانت توقظنى أمى من المنام .

سرت بممشى حـديقة الدار بالقرب من حافة البئر المحفورة بجانب السور .. كان الزمن فى الربيع .. كانت كثافة الخضرة وظلالها المورقة ترسم على السور اشكالا مهوشة وغير منتظمة .. كان أخى الكبير يقف قرب طلمبة الميـاه التى تنشع ارضها بالميـاه المتخلفة العكرة قلت له : اننى رايت طائرا مثل الطائر .. رد على بعـد ان حـدجنى بنظرة مستفسرة : اى طـائر اعنى .. قلت له : الذى هناك .. صعد درجة السلم وأعطانى ظهره .. كان ظله يسبقه وكانت فروع الأشجار الابريه تمتـد عبر السـور .. وقف أخى ونظر ناحينى وقال لى : اننى لايجب أن اتعب نفسى .. اقتربت منه حتى حاذيت ذيل جلبابه وصحت فيـه : انه سـوف يرى عندما آتى به واحبسه فى الغرفة العلوية واسمع عـويله مثل جـدى .. ضحك أخى ودخل الدار .

وحدى أقف بين الظل والشمس .. خلفى السور وامامى الباب تلوح منـه الساقية جاثمـة . خلفها النهر بينما تدور هبات هـواء الخماسين .

كنت ادور كل يوم ولا أجـده .. غيرت مواعيدى ومواسمى .. حاذرت الخطو فى المكان وتسترت بالظل وجذوع الأشجار .. حادثت النهر والزرع والقبر والضريح .. أمسـكت به فى الحـلم وطار منى فى النهـار .. حزنت وعرفت معنى البكاء والخوف .. هبت رياح كثيرة ورأيت كثيرا من المراكب الراحـلة الى المرافىء البعيدة تمر بى .. كنت ارى قلوعها البيضاء مفرودة ومليئة بالهواء وكانت تطلق أصـواتها كقرع الطبول وكنت أسمع بحارتها يغنون وكنت اعرف أنهم تعساء .. وكان ابى قـد قال لى : كان الزمان غير الزمان .. والرجـال غير الرجال .. والوقت غـير الوقت .. قال لى : أنه كان اكبر منى بسنوات ولم يكن شاربه قـد اخضر بعد .. وكانت الناس قلة تمشى فى الحارة فلا يقابلك انسان .. كانوا هناك .. يتحلقون حـول (ركية) النار التى تعلو قامتها فوق الرؤوس .. خلفهم الضريح وبعده تمتد المقابر على مـدى مكانها المعلوم .. وعلى البعد ترتمى البلد قديمـة ومفـرغة فى الظلام .. كانوا حـول (الجاوى) القادم من البلاد البعيـدة .. لونه غير لوننا .. وسحنته غير سحنتنا .. آت بملابسه غريبـة

الطراز والتى تميل للسواد .. تتدلى من رقبته عقـود بألف لون وألف شكل .. يحمل على كتفه خرجه وبيده عصاه ذات العقفة .. يضرب بابنا بعصاته ويصيح فى جدى .. كان صوته يصـاعد فى الحجرات العلوية وينسرب فى الدار كالنذير (انهض ياعبد الغفار.. حضر (الجاوى) .. وكان جـدى ينهض بنعاسه .. يدخل فى ثوبه بعجلة بينما تكون جدتى قد جلست على حافة الفراش ويهتف جدى : (اهلا بالكريم ابن الكرام .. جاءت أزمان الخير والبركة) .

هاهى ذى الشمس ذاهبة أراها من موقفى فوق الجسر .. كانت الشمس تروح مخلفة بحيرة الدم الأزلية ، بينما يتضوع شذى آخر النهـار مختلطا برائحة الماء وأعشاب الشواطىء .. رايت الجميزة العتيقة بجرمها الهائل المستقر على أرض المدار .. لاظل لها ساعة المغارب .. تمـد أذرعها حيث الطريق التى يعود منها الخلائق فى صفوف خريفية من ألوف السنين .. درت حـول الجميزة وهف على رأسى سرب الحمام العـائد الى ابراجه .. أتانى من البعـد صـوت آذان المغرب منسربا فوق المـاء يحفر فى صدرى الخـوف البعيـد الغـور .. تذكرت من ماتوا .. جـدى ذلك الذى كنت أراه آخر أيامه متوكئا على عصاه ذات العقفة يجلس أمـام باب حـديقة الدار الواسعة من الربيع الى الخريف ناظرا ناحيتى بعينيه الكليلتين وكان يهتف بى (ياابن الكلب لا احـد يدوم ، والعمـر لايمكن أن يكون رفيقا ؟ .. وكنت لا افهم مايقول .. وكنت أرقب خطواته التى غـدت ثقيلة ، واندس تحت كتفه وكان يستند على .

(أيها الطائر التائه عن وكره .. ها أنذا فى انتظارك)

كانوا هناك وحـدهم تتدلى اذرعهم على ارجلهم المضمومة .. المقابر منثورة مثاوى للذكريات والآباء .. على حوائطها صـفت رخامات عليها التواريخ والأسماء .. أناس مروا من بابها الضيق وكنت لا اعرفهم .. ممراتها سبخة بتراب ناعم .. أسراب الذباب الأزرق تطن مع مغرب الشمس باحثة عن فجوات تخفيها .. اشجار المستكة والدندان والكافور بلغتها القـديمة الحميمة .. (براد) الشاى الكبير الملون بألوان كالحناء وأبى يقف خلف تل القمح المبارك على أرض الجرن كالجمل .. جدى بجانب (الجاوى) صـاحب

المعجزات يستقر جنبه خرجه القـديم وذقنه الأشيب علامة الصلاح والتقـوى .. ولغته القريبة من النفوس والقلوب كانوا يعشقونه ويجُونه .. السمع ياحاج عبد الغفار .. لا أحـد هزم الزمن.. أنا لى من العمر ثمانين .. جبتها طولا وعرضا .. الآن تلحق بى القبور) .. تهب فى الليـل نسمات باردة وتخبو النيـران مخلفة رمادها بينما على الطولات تجتر البهائم فى صوت رتيب أليف .. يغفو الجميع ويستحكم الوقت .. كأنها الميتة الاولى ويحـل الصمت آسرا .. تأتى الشياطين تصرخ فى الأشجار بهزيم كالرعد ثم تتوجه على تراب الليـل تجاه البحر .. وفى المنام تأتى الأرواح الطيبة مع الحلم عوضا عن كد النهار .. **وفى السـكون المحاصر يأتى صوت الطائر الغريب منداحا ، لايكون تسبيحا ولا غناء ولكنه أشبه مايكون بالعـويل .**

لو سرت الآن ساعة سأكون عند الجسر .. هناك عند تقاطع الطريق فى هذا الوقت من العام يكون النهر مندفعا يغذى الضفاف الطينيـة ويحى العشب البرى المزهر .. كنت قـد قلت لاخى : اننى أعرف عشه وكنت اكذب عليه .. كانت ثيابى زرقاء كالسماء وكان ذهنى لم يصف بعـد .. كنت قد قلت لجـدى : اننى سوف أعطيه الشمس .. وكان قـد قال لى من بين فمـه الخـال من الأسنان : انه يجب أن يكون يقظا ومحاذرا من ان يغفـو قرب البئر .. وعنـدما قلت له : سوف آتى بالطـائر من عند حافة الخليج نظر ناحيتى وقال لى : انه لم يفهم شيئا .. قلت لاخى : اننى رايته مرة عند (المرادة) فى العصر وكانت الطيـور البيضاء الكثيرة تتجمع على فروع الجميزة وكانت تلك الطيور شبيهة بالخيمة الواسـعة وكانت أصواتها تأتينى مع صـوت المياه .. كان هـو هناك بسمرته الضاربة الى الزرقة ومنقاره الاحمر النهم .. نفس طائرى المعلق على باب الدار .. جريت ناحيته وصعدت الشجرة محاذرا وخافت كل الطيور ورفت فى الهواء مبتعدة .. وصلت اليه ننظر ناحيتى قلت له (أيها الطائر الكبير العيون لاترفع صـوتك ولا تأتى جناحـاك بالظلام .. اسكن مكانك سـأمد يدى الآن لآخذك) وخفت أن يحملنى ويطير لكننى مددت يدى لأمسك بمروحة الريش ، لكنه كان قـد طار بعيدا ثم اختفى فى الفضاء .

كنت كل يوم آت الى الجسر .. تذهب الشمس وأعود خائب الرجاء حتى كان هذا النهار .

عند راس الجسر (سبيل) ماء بناه مملوك قديم ترابا واجرا.. ماتزال ألوانه زاهية وعليه كتابة بحروف متآكلة وغير مفهومة .. قبته عالية ومياهه باردة أبدا تروى عطش اهل الطريق وأبناء السروح .. (كشك) عسكرى الدورية والذى لايأتى الا مع الليل .. مضرب للطوب وقمائن محترقة تفوح منها تلك الرائحه الأليفة والشبيهة برائحة (طواجن) اللبن فى الافران .. صف كفور وصف توت وظلال .. قيالة لاتدب فيها القدم وسكك مقطوعة وغفوة فى نهار تعب .. أنا وحدى فوق الجسر تتعلق عيناى بفضاء الله الواسع وتدور رأسى فى الظهر الأحمر .. ألق الشمس فى الظهر لامعا مهتاجا وللشمس سطوة .. كانت عيناى فى أعالى الشجر وفوق الأبراج وعلى أرض أحواض الشراقى .. الأرض فسحة للزمن والسماء مرعى للشمس المهتاجة .

(لو أبصرك الآن أيها الطائر)

قلت واستندت الى سور الجسر الحديدى وحادثت جدى .. كلمته عن الوقت ونفاذه .. كلمنى عن نهايات العمر ولم يبتسم.. لكنه كان هناك يدور حول نفسه فى الفضاء الرحب .. هناك بجناحيه المنشورين كالمروحة ومنقاره الأحمر وعيونه التى لاتطرف.. يحدد مكان هبوطه من علوه القصى .. (أعرفك .. وكان (الجاوى) يعرفك وكان جدى يعرفك) وكان الجاوى كلما سحره الليل وامتد به الوقت فى كشف القمر ورأى مخلوقات المولى تناديه حمل عصاه ذات العقفة ووضع خرجه على كتفه وتبع الأصوات التى لاتكف عن ندائه وكان لايعود الا بعد فوات السنين.

رأيت الطائر يهبط مكانه بثقله فوق فرع الجميزة العالى : يرف رفة الهبوط النهائية فاردا جناحيه عن آخرهما ويستقر فوق الفرع .. كان الفرع مكشوفا للسماء .. يحط فوقه وحده : يحرك رأسه ناحية الشروق .

رأيت رجلا يبرز من دغل الغاب متسللا .. يرتدى سترة من الجلد ويلبس على رأسه قبعة ويضع فى كتفه حقيبه من القماش الكاكى الاصفر .. ويحمل بندقية لهـا ماسورة طويلة .. حدج الصياد الطائر وضبط النشان .. كان الطائر فى مرمى الهدف ! ستنطلق الرصاصة الآن مندفعة . مزلزلة فى صمت الظهيرة اللاهب .. تمزق الصدر المفتوح ويسقط ذلك الطائر ملطخا بدمه وقد تفتت لحم البطن واندس المنقار الأحمر النهم فى التراب) قلت لجدى : أن لاشىء يدوم وقال لى : أن الاشياء تبدو متشابهة بدرجة مفزعة اذا حل الاوان .. صرخت صرخة شبيهة بالاستغاثة .. طار الطائر ودار يرقب الصياد الذى يضبط نيشانه مرة اخرى .. انقض الطائر من علوه البهيج ناشرا مخالبه كالرماح كان يقصد وجه الصياد الذى خاف فجأة .. اندست المخالب الرماح فى الوجه تسحل العينين فى وحشية بدائية كانت البندقية على الارض واليدين تصفق الهواء بينما الوجه يدور فى عماه المفاجىء وصرخات كالعويل تنطلق فى هجير الظهر .. كان الطائر يصعد الى الفضاء الرحب ويختفى وأنا واقف فوق الجسر احدق فيما أرى وكنت لا أفهم شيئا .

حضـــر المـوت

« الى ســعاد .. البنت ..
الروح الهائمة عبر الوادى ..
والتى قابلتهـا صـــدفة »

حضر المــوت

البـــداية :

لا تفتـــح الباب للريح ..

دعهـــا لا تأتى ..

لم يكن صوت زئيرها الا بعثا للمخاوف فى قلب ابنت الشـــابة الراقدة على غراشها (هاهى ذى الحـــديقة .. الظل .. المبنى المقـــام بين تخـــوم الحـــلم) حبيبـــى ذاك الـــذى لـــم يأت من يوم رحيـــله .

كان السلم الدائرى يلتف بالبيت من الخارج ، وكانت اذا مانظرت من اعلاه ترى الناس يبتعدون عنها وكانت تبكى وحـــدها مستندة الى الحاجز الخشبى وكانت الريح لاتنى تهب .
قالت لنفسها :

ــ انها لاترى السفن راحلة ولكن يأتيها فى الحلم الشراع .

بكت الأم واهتز داير السرير القماش والسرير بأعمـــدة سوداء أعلاها عرائس من نحاس أصفر لها لمعة مستقرة فى فراغ الحجرة المعتم .. كانت البنت غافيـــة فى حجرتها العلوية على وجههـــا سكينة واستسلام .. فتحت الرياح البـــاب فانصفق وخافت الأم على البنت فشدت على جســـدها الغطاء .

الغســـل :

قالت لأمهـــا :

ــ خـــذينى الى النهر .

اجلستها أمها وانصرفت .. خلفها دغل الشجر وامامهـــا تلة المرعى وبينهما النهر وعلى مدى آخر النهار سماء حمراء مغبرة .. ودت لو عادت وخافت المغيب وظل المرعى والصوت الذى يأتيهـــا من دغل الشجر .. بتوجهها نحـــو النهر كانت تشعر بتوهج الحياة

يصدرها .. كانت كمن يخوض فى طقس يومى يختلط فى حمرة شفق مع ظل الشجر وكثافة الدغل وصوت ياتى لا تعرف من اين ؟ .. مرة اخرى ودت لو عادت تكن تحت قدميها بلاطات المصلى المرصوصة على شاطىء النهر لها برودة يد طفل صغير .. جاءها من دغل الشجر .. أتى اول الامر لم يكن خوارا او عواء أو نباحا لكنه صوت تمتزج فيه تلك الأشياء .. خافت لكن عم (عمران) الترىى كان يقف قبالتها بملابسه القديمة الرثة وعمامته الخضراء ذات العدبه وذقنه الاشيب الطويل .. عادت الريح تهب واحمر الجو ودارت بالارض الزوابع .. كلمها عن المرعى والحياة وعن نهاية السموات .

قالت له :

— انها تشعر بأن الأشياء متوقفة ، وأنها ترغب فى البكاء .

قال لها :

— انه كان يود أن يرى عينيها من زمن بعيد .

اتاها حلمها من المهد بينما النهر يجلس على شاطئه بيده يدفع الريح وباليد الاخرى يزيح رذاذ الماء .. جلست على شاطىء النهر تنظر للماء ودوائره تتسع حتى تصل للشاطىء .. انقض الطائر الغريب وانغرس فى النهر وعاد خائب المسعى .

مد عم (عمران) الترىى يده وجله أول الامر ، ثم جارحة الى حد أنها كانت تعرف طريقها بدربة .. خلع سترتها ذات اللونين .. بان ظهرها للشفق دقيقا مليحا فى آخر النهار .. مد يده الاخرى وشد (الجيب) الازرق ووضعه جانبا فانكشف ساقيها المدودين حتى الماء .. انزلقت صديرتها وساعدته فى خلعها (لاتنظر فى عينى ياعم عمران) .. الشمس الغاربة استباحت صدرها العارى .. حمامتان فزعتان فى غبش النهار الأخير .. جدائل شعرها الاثيث يطوحها الريح النافرة كالجياد .. كانت عارية تماما يلون جسدها لون الشفق ، لون الدم المراق وذكرياتها تنساب فى رأسها كتدفق الينبوع .. قدمها فى الماء ويدها على الطين وساقيها المدودين حتى النهر :

مستسلمة كانها غافية .. اخرج عم (عمران) كتابا أصفر الورق واخذ يتلو عليها .. اتاها صوته حزينا عميقا كأنه آت من مكمن فى مسجد خال بعد صلاة العشاء آتيا بصدى ورنين • زاحفا عبر مناطق الظلمة فى الأقبية المظلمة القديمة . تحت ذبالة ضوء قنديل شاحب مملوء بالزيت تحاصره عتمة كالتى فى الأحلام .. ضربت رجلها الماء فاتسعت دوائره وأطلق سرب كروان مهاجر صوت استغاثة .

« ولما كانت الأرض لايرثها الا الموت بينما دبات قدمى الآدمى خارجة من الظلمة وعائدة الى الظلمة .. وكان مقدر للسيدة أن تظل قرب المعبر جالسة .. بينما يطلب من السلطان ان يفك اسر عبده .. بكت السيدة عندما أمر السلطان بأن يأتوا بالنطع والسيف وانسربت من جانبها سحلية خضراء » .

قالت :

— والبنت ياعم (عمران) .
— لم تكن هناك .
— فى الحلم .؟
— فى الكتاب المؤجل .
— أكمل ياعم عمران .

— اننى ارعى غنمى ليلا بالبرارى بالناحية الغربية من التل (أشار بيده هناك .. ناحية الشمس وهى تروح) اذهب دائما فى الليالى شديدة الظلام .. حقيقة كثيرا ماتغفو غنمى ليلا ويتوقف صوت اجترارها وكثيرا ما أخاف لكنى أقطع الوقت بأن أقص على نفسى قصص الأشباح التى تجىء من خلف التل .
— الأشباح .
— ان الحياة مليئة بالمخاوف ، وشغلة دفن الموتى تبعث فى نفسى السلوى والعزاء .
— أكمل ياعم (عمران) .

كفه ذات أصابع طويلة مستقيمة لها أظافر كالمخالب .. دسها

فى طين النهر .. حمل الطين الطرى المختلط بالمـاء بعد أن لاكـه بالاعشاب وعلى ظهرها وضعه بيده كان يغسل الجسد بالطـين حتى اختلـط الطين بالجسـد والجسد بالطين .. وبدت طاميـة مع مقـدم الليل من رقبتهـا حتى اخمص قدمهـا وكان يتسـلل اليها ذلك الصوت التى تدركه بحسها الخفى .. الرجـل يمارس طقس الغسـل يداه تعبران جسـدها العـارى وهى مستسلمة شاخصة كانهـا تحلم .. عيناها البراقتان تهز الرجل كلما تطلعت اليه . لـم يكن وجهها معذبا ولكنه كان فزعا وجسـدها المبتـل يضوع برائحـة الزرع والطين .. رفـع أبريقا أسود من الفخار له (بزبوز) مشطوف الفم ملأ الأبريق بماء النهر وعلى رأسها صبه .. تدفق المـاء من رأسها وانسال على أرض جسدها يدفع الطين الى مساربه الى النهر .. كانت عيناها دامعتين تستقبل ظلمـة الليـل بخوف آسر .. رآها الرجل ترتعش فخلع ثوبه الواسع ولفها به فكانت كمن لفـه ظلمـة الكفن .

الزيـارة :

— الضريح ياخاله سره باتع .

تمتمت الام بالدعاء .. كانت تحمل حلبة لبن العشـاء فى اناء الفخار .., على الحائط ظلال مقيمة ملونة لأشكال ثابتة لاتريم .. باب الدار مفتوح على زقاق ضيق يواجه جامع (أبو حسين) العتيق .. من ميضة الجامع تأتى سعلات مريضة وتمخضات الوضوء .. تأتى القـراءات الى قلب الأم فترجفها المخـاوف كلمـا تذكرت وحيدتها الراقدة على فراشها أعلا الدار .

فى آخر الشهر العربى تظلم الدنيا قبل الفجر بظلمة محاصرة ، جاهلة .. تبـدو الأزقة والحارات مسـارب تغور فى القلب ويتم الخوض فيها بالمعرفة السابقة المكتسبة من خبرة الأيام .. نهضت الأم على صوت نباح كلب الدار ما قبل الفجر ، صغيرها ينام يحلم مكشوف العورة .. قفص قديم عليه أوانى النحاس كابية ومطموسة اللمعة فى ضوء القاعة الشحيح .. شـدت الأم الغطاء على عـورة الولد وسمعته يحادث نفسه فى المنام .. سحبت من تحت الوسادة دستة الشمع الملونة .. قالت لابد أن يلحقنى الآذان بالضريح ..

هب هــواء الفجر وزام بنافذة الدار المفتوحة على الليل .. لفت النسمات بطرحتها وأدخلت رجلها فى مداسها القــديم .. أغلقت باب الدار خلفهــا وسمعت أظافر كلب الدار تكشط خشب الباب بوحشية وصــوت نهنهته تدعوها .. فتحت باب الدار فاندفــع الكلب يثب عليها فرحا باطلاق سراحه .. سارت يتبعها الكلب مســتقبلة الجسر والسبيل وطاحونة الغــلال وفى السماء تخفق النجــوم .. نبح الكلب يطارد الخيالات .. خافت الأم وواصلت المسير تمتلأ رأسها بحكايا أهل الســكك .. الضريح يجثم قرب المقبره التى ترتمى بعده متناثرة ككهوف .. يمينها بقايا معبد قديم وساقية مهجورة .. أطلال المعبد مستقرة فى ظلمة الفجــر تهمس بالكلمات التى تصل اليها مع الهواء حيث تمتزج بمشاعرها القلقه .. كلب الدار يعبث بين قدميها .. الضريح جاثم على تل عــديم تحوطه أشجاره القديمــة التى تعرف لغة الريح ودوامات العواصف (يا أهل الله الطيبين .. بحــق الشجر والليل ومن ماتوا ومن سيموتون .. ها انا وحــدى على الطريق .. أرقب ذيل النجــم وانتظر لمعة النهــار .. وحيدتى فى فرشتها غافية .. أطلب العون من علام الغيوب) .. نافذة الضريح تسع الوجه بالكاد والعــين تبرق خلال ضوء الفانوس الساكن .. شال أخضر يعمم رأس القبر ويسقط على جوانبه والقبر جاثم فى الضــوء الشــحيح .. بقايا شموع مطفأة وتمائم وأحجبة وأوراق مكتوبة بلغة غير معلومة .. أسرار خلق الله تطلب المعجزات .. مسك الموالد ذى الرائحــة النفاذة والآتى من البلاد البعيــدة .. هنا الموت الراقد فى الفجر كالوجع المسيطر والنافذ فى القلب كسن الخنجر المسنون وثوب الأم مملوء بالهواء ، يطوحه فى الاتجاهات الأربع .

— هى ابنتى (ياطاهرة).

وأشعلت شمعة فواجهت الفانوس داخل الضريح وبددت ظلمة الشــباك .

— تسعى من أجلى ياطاهرة والزمن لايرحم .

وأشعلت أخرى :

— من ذا يريد أن يذهب قبـل أوانه ياطـاهرة .. وهى بنتى وعكازى .

نورت دسـتة الشـموع وأضاءت داخـل الضريح .. بانت الآيات على الجـدران والألوان والرسوم القديمة .. نبح الكلب وزام .. اخرجت الأم رأسها من الشباك كان يجلس وحده فى الليل على مصطبة الضريح بذقنه الأشـيب وعمامته ذات العتبة يرتـل تسبيحا بلا حنان وعلى فمه المزموم علامة عـدم الرضى .. مزروع بالأرض كنبت يطلع على غير أوانه .. هتفت به خائفة .

— عم (عمران)

لم يرد الرجـل عليها .. فقط مـد رجله عن آخرها ورجـله الأخرى مضمومة تحته ، محدقا فى فراغ الليـل المقيم وعيناه تعكس وهجا فى الليـل .. لحظتها خافت الأم واشتد فى الليـل نبـاح الكلب .

الخاتمـــة :

أنا ماتزال بعـد .. لم تغـادر الحجـرة .. ما هـذا الشىء الذى يحـدث ؟

انى غير سعيدة بالمرة .. بالله لا تضغط على عمرى ..
السرير ذى العواميد الأربعة السوداء تحوطه (ناموسية) بيضاء نظيفة .. عليهـا رسوم لشمس غاربة وأسد يطارد غزالة وحروف لأبجدية غير منتظمة .. وسائدها مطرزة بالسنبلات وسعفات النخيل .. دارت عيناها فى فراغ الحجرة وتنهدت .. ياالهى كأننى لـم أكن صـبية .. كان يأتينى بالعمـل وكنت أحبه وكان يكلمنى عن الرحيل والسفن والبلاد البعيدة .. أين مستقره الآن ؟ .. فاض عليها نور النهار وخافت الظلمة ..

— تعبـــانه .

— سلامتك ياضنايا .

ونهنهت الأم .

صفحات الكتاب تنشر وصـــوت عم (عمران) يأتى عبر المســـالك الموحشة .. كان الوجه للتربى والزمن غير الزمن .. غفت وتزاملت حـــدة الوقت ولحظة الغيبوبة المفاجئة .. صحراء برمل أصـــفر وكثبان .. فجوات لجبال وأمواج .. بحـــار وطيور راحلة .

فى الكتاب ياعم (عمران)

(حضر موت) الوطن .. عدن الجنـــة .. عيناها مفتوحـــة ترى ولاترى .. عنـــد التخوم البعيدة يجثم القصر .. الســـيدة والعبد والسلطان .. الست (زينب الطاهرة) تطرق البـــاب بلا اذن وجهها أبيض وثوبهـــا أبيض على كفها دستة الشـــموع الملونة تخـوى ألوانها مع الظلمة الزاحفة .. على وجهها بسمة وفى عينها بسمة .. هاهى نظراتها معها تدور بمحجريها والأم ترقب العينـــين اللتين يزحف على سوادهما البياض .. صرخت الأم بينما يد البنت قد استراحت بجانبها .. فى اللحظة ذاتها علا صوت العم(عمران) من فوق مئذنة الجامع يدعو الخلائق للصـــلاة .

العشـــاء الاخـــير

« كل الرجال تولوا ، وما هتفوا فى المسالك
باسمى وكل النســاء توارين قبــل العشى
وخلفن للريح هــذا العشــاء الأخير »

« محمد العزى »

العشـاء الاخـير

الزقاق الذى يفصلنى عنـه يمر عبر «رواق» منسى .. اتخـذ فيها مضى مجلسا للرجال .. اسموه « بسـاط النواوى » ، حيث كانت تعريشة الخشب . وحطب القش تلقى بالظل فتقفل الزقاق بالنهـار .

(وكنت عندما أمر به وأنا صغير أسمع لغط الجنيات خلف جدار غرفة عشاء (الرواق) وكنت أسـمع دقات قلبى أيضا ، فأحث خطاى حتى اذا ما رأيت بصيص النـور عند منحنى الزقاق جريت استنجد به) .

كنت فى البدء — وأنا صغير — أرى الرجال يجلسون على حصير من سمار ملون الحواف .. يجلسون واقدامهم تحتهم — نفس الرجال الذين لم تهلكهم الحياة بعـد — بقاماتهم المديدة ، وروائحهم العرقة المستمدة من الرماد ، وقـد لبسوا جلابيبهم القـديمة الحائلة وبدوا فيها كجذوع أشجار عتيقة جففتها الشمس ، متحـدين البـلى والفنـاء .

وكنت أرى حـوائط من طين ملون ، وطاقات يدخـل منها نور الشمس وأرى من خلالها النجوم والعشب الزاخر يحوط (الرواق) الذى لم يكن منسيا ، والذى يطل على الغيطان والخلاء .

تأملت باب (الرواق) الكالح عندما أتانى صوت أخى ؟

« ينتظرك من زمان »
قالهـا وكان يقف بقرب الباب .
« قال انك غبت كثيرا .. هو الباقى »

خطـا .. ومضى .. غاب عنى ابن أبى أحـد الهالكين .
خطوت ، يدى بجـانبى ، وعينى على «الرواق» .. دخلت من البـاب العتيق .

« كل هـــذا الزمن قد انقضى »

تلك المقرنصات التى تحملها الأعمدة ، والكتابة الشبيهة بالآيات والتى لم تكن ، والأرض الترابية وقــد انخلع عنها بلاطها الملون .. حتى النوافذ التى تبدو كعيون تواجه السماء فى جــدار «الرواق» القــديم ، والتى كنا نرى من خلالهـــا انهمار المطر ، تلك النوافــذ وقد كستها خيوط عنكبوتية منســـوجة على مهل عبر ســـنوات مضــت .

كنت ارى فى الركن (مشكاة) مدلاه بسلاسل رفيعــة من حـــديد صدىء تدفعها هبات هـــواء قليلة (**وكان يهتز نورهـــا فيما مضى وكنت ألعب مع ظلى وحـــدى فى ساحة (الرواق) ، وكان ظلى يقفز من جـــدار لجدار وكنت أخاف منه عندما يطول أطول منى ، وكنت أختبىء خلف عامود الوسط محتضنا اياه ، وعندما أبرز كان لايزال ظلى أطول منى وكنت أفر من ساحة (الرواق) .. واخاف**) كل شىء قد سحقته الأيام .

ضربت عامود الوسط بيدى ، ونظرت للســـقف الذى سكنته العناكب .

عامود الوسط كم دار حولك من غلمان ، تمتلىء اثوابهم بالهواء فيطيرون بأجنحة ملونة عبر (الرواق) حيث يضج بهم ولايضيقون به .

خطوت للساحة المفروشة بالرماد ، وصعدت الدرجات التى اكلها الزمن ومضغتها الأيام .. هى «كنبة» الخشب التى كانت فى موقعهـــا كل تلك السنين .. اذرعهـــا الخشبية ممـــدودة فى استغاثة .. اتجهت يمين المدخل ودفعت نفس الباب الذى دفعه الطفل الذى كان .. والذى كان يلبس ثوبه القصير المقطوع بالخطوط الملونة والمبقع بالوان ثمرات التوت ، ومندى بطين الترع .. يقف وحـــده بين المداسات المخلوعة والتى تواجه الحصير الملون ، يجلس مفتوح العينين بالدهشة ، بشعره القصير الزاحف حتى منتصف جبهته ، يفتح عينيـــه المندهشتين الدامعتين بدخان قـــوالح الذرة فى اناء

الفخار القـــديم .. الظلال للرجال والضوء أصفر باهت والرائحة لم تكن كريهة لكنها مطمورة فى خليط من كتمة الهـــواء والأنفاس المحبوسة . وزمنة حـــر (ابيب) صاحب الليـــل الطويل والهـــواء الشحيح .. أصوات مختلطة زاعقة مشروخة بالسعلات المفاجئة المكررة الرتيبة .. وكلب (الرواق) المشدود بالحبل يقف شعر جلده ويشد أذنيه متصنتا عبر النافذة المطلة على الظلام ولا ينبح .

أدرك انا الصغير الجالس متكوما ، أسـنـد رأسى على ركبتى ولا تخف عيناى عن التحديق وأرى من مكانى هـــذا الحلقة الابديه تتوفز باللحم الحى والشوارب الكثة والعيون المتفتحة الدامعـــه ، ينفتح الباب ذى الضلفة الواحدة ، والأسد صاحب الفروة الذهبية .. الباب صاحب الانين الرفيع والخطوط البارزة .. تدخل منه البنت البكر بثوبها البرتقالى الشيت ، على صدرها رمانتان وعلى الراس طرحة سوداء من حرير طبيعى ، تحمل صنية العشاء . من نحاس أصفر بحواف مستدقة تلمع فى ضـــوء مصباح مهتز .. فى وسط الصينية نقش كنقش التمائم .. للبنت الظل والقامة المديدة وعانية سن البكارة .. والرجال رقاب تستطيل ، وعيون صقور .. تدور البنت دورة ويدور خيالهـــا على الحائط دورة .. تضع صنية العشاء محنية ، وينحنى صـــدرها اليمام ، مثنية الصـــدر بعجيزة كالعجين .. أحـــدق فيها من مجلسى بين المداسات بعين مفتحـــة وانتباه مشبوب بالحنين ..

(وكنت بالقدر الذى أعيـــه احاول فى كل مرة أراها أن أضـــع يدى على صدرها الفزع ، وكانت هى تحتضن يدى الموضوعة على صـــدرها الفزع وكانت فى كل مـــرة تنظر فى عينى وتبتسم وكانت تقـــول لى : لمـــاذا لم أعـــد آتى (للرواق) ، وكنت فى المســـاء أستحم بصابونة أختى ذات الرائحة الحلوة وأذهب (للرواق) وأندس بين الرجـــال) .

وسط الصينية (طنجرة) الثريد و(حوقى) الأرز المعمر بوجهـــه الأسمر المحروق ، تنغرس فى جسده ملاعق من خشب .. وصحن الجبن القـــديم المصفر برائحته النفاذة المثيرة للريق .. طاجن اللبن (بوشه) الدسم المتماسك على بحر اللبن الرائب .. (غمر السريس) ،

وجبل العيش بفوحه الأليف ، وصحن الليمون المخلل المبقور البطون والأيادى المخالب تنهش النقيمات ولا يسمع الا صوت الهمهمة .. تنحنى الرؤوس على الصنية النحاس . وتنحنى الظلال على الجدار تغرف رزق العشاء وتغور الملاعق والأيادى فى مهاوى جروف الأوعية السمراء .. جرتنى اليد القـوية وحشرتنى فى الدائرة .. مددت يدى الصغيرة وجلا أحمل الى فمى الزيارات المتتابعة الرتيبة وعينى فى العيون الصقور .. يهدأ الحشو وتستريح الأيدى وتنفرد الأجساد .. خلف نافذة (الرواق) تقف البنت مجدولة الضفائر .

(وكنت أخرج أنا حاملا ماتبقى من أرغفة وأقف بجانبها وكانت تمـد يدها وتضمنى لصدرها وكنت اشعر بثدييها فى راسى وارتعش بينما أرفع يدى وأضمها بحنين واشتياق وكانت البنت تضحك منى منفلتة من يدى وكنت أقف أنا الصغير تحت النافذة وأبكى بصـوت خفيض) .

أبدو أنا الطفل وسط الرجال سارقا الأيام ومبهورا بحلقة الرجال .. يتكلمون عن النار وعن الزرع ، وعن الأسلاف ، حيث تتشابك أصواتهم حارة .. يصيح أحـدهم :

« النار ياابن سلامة »

انهض متخطيا المداسات . فاتحا البـاب ذى الضلفة الواحـدة والأسد صاحب الفروة الذهبية أمشى عبر ممر (الرواق) فى الظلمـة الخفيفة . على شمالى حجرات مقفولة بالضبة والمفتـاح ، تنحبس حيوات نابضة بتهويمات لهـا معنى فى قلبى الصـغير الخائف .. على يمينى حوش (الرواق) المبلط بالبلاط الملون .. تسحبنى خطواتى الى حجرة النار .. أدفع باب آخر الحجرات والتى تقسم الممـر ويتوسطه بابها الخشبى .. فى ظلمة آخر الحجرات يستقر اناء النار بحمرته اللاهبة فيما تشتعل آخر السنته مهتزة من غير ماهواء .. أخطو أنا الطفل الصغـير ناحية الضـوء الذى يهتف بى واقفا فى الحجرة المعتمة والتى لاتبدد النار عتمتها حيث يفضى الى الوهـج بالسر .. أرى فيما أرى ظلا يدخل فى ظل ، وتحت ثقل ما أحمـله من خوف اعتقدت أننى اذا ماحركت راسى فلسوف أرى مالايرى..

ارى اذرعا من زمن مضى ووجوها امتلأت بالأسى والحنين .. خفت وحــدى وكأنما العتمـــة ابدية تسيطر ولايهددها ضوء النار ، وانا اخطو نازلا منحدرات غير مواتية للحــلم .. كأننى اخاف ، وكأن روح الزمن لاتهزم .. عندما صرخت انفتح الباب ودخلوا على .. ولم يكونوا .. عندها تأكدت أن فراغ الوجــود ليس بفارغ وان محتوى ما اخاف منـــه خارجا اراه ينتفض بداخلى حيــا .

« هو البـــاقى اذن بعد أن انفض جمع الرجال وماتوا »

تركت (الرواق) خلفى وعلى النهر رأيت النهـــار .

ستائر طائرة هى السحب .. زرقة حبيسة بين الستائر الطائرة ترنو منها شمس الشتاء .. أجنحة من ريش غـــير منتظمة تنتفض لمـــاهيات متعجلة تهدل عبر الفضاء السارى .. ماء نهر الماضى قد ضاق بشطآنه الزحمة .. صف الكافور العنيد ، المردة ينغرس فى كيمان السباخ الذى تنبشـــه دجاجات النهار الشريدة بنشاط عشق الحياة والموت .. الرجال قلة يخطون على الطـــريق على الكوبرى الخشبى الى الغيطان .. فى المرعى القريب من الدور ترعى خراف بلا صاحب ، تطارد الخضرة على شـــط مصرف الصيد ذى المـــاء الرائق كنبع .

« اين ذهب الرجال ؟ »

« ما الذى تبقى منهم ؟ »

ارتعشـــت بادراك غير حميم ، وخفت فى النهار الذى تحاصرنى بيوته والتى بنيت وانا غائب .. أين البيوت القديمة والتى الفتها ؟.

خضت فى الأزقة التى لم تعد .. تركت دارى خلفى ، دار أسلافى الراحلين .. هل كنت أحمل على كاهلى ثقلا ؟ .. عما افتش انا الغريب العائد من الماضى ؟ .. كأنما لعنة الفصول قد حلت فبعثرت ما أحلم به .

أراه يجلس أمام داره هـو (الباقى) .. اخى بجواره يهمس فى أذنه .. كانت يده تقبض عصـا جزورينا .. الكف على الكـف ، والرأس محنية .. يستقر على كتفه شـال من حرير مزوى فى لون حناء الاعراس .. (لبدة) من وبر — كان لابى فيما مضى مثلهـا — مدفوسة الى منتصف جبهته وكانت تستر انشـعر بالكاد فى زمن كانت الرأس تسبح فوقها النجوم .. عين البـاز القـديم انطفأت لمعتها ولم تعـد تنفذ عبر ظلمـة (رواق) الماضى المنسى .. وهن الجسد بصدمة العمر ووخط الشعر المشيب .. خلف جـدار داره مثواه ، وهى من تراب وطين ، والرفقة حيوان أليف بعـد أن تبعثر الأولاد فى الشعاب البعيدة .. يقبع وحده فى عتمة النهار وظلمـة الليل .. احسست أننى حلقة فى الماضى هل سآخذه من يده وألج به عبر أبواب موصدة ؟

رفع رأسه — رأس الباز القديم — خطوط سكك الزمان متقاطعة ومتوازية على جلد جبهة صدفية ووجه من حراشف وأصـداف .. حاجبان متقاربان وأذنان تقفان كأذنى ذئب البرارى .

كلما اقتربت منه رفع رأسه — رأس الباز القديم — وحدجنى بعين شحت رؤيتها (كل هـذا العمر انقضى وانا غريب يالعم) .. التشـابه الذى يربطنى بأبى عبر ميراث العمر يحفزه الى حـد الاستثاره .. جسدى جسد أبى وعينى عيناه .. خطواته المتثاقلة الضاغطة يمينا ويسارا .. سعلته الدنونة المتأنية .. كأننى بعثت فى مشهد الرؤيا .. كان أبى الميت يطل عليه من الزمن الذى فات .. كأننى أتجلى فى المشهد النهائى .. اخرج من دوران الأزقة المحاطة بالبيوت الغريبة ، وشمس النهار مليكة متوجة بالغمام .. يرفـع رأسه ويحـدجنى :

« سـلامه »

توقفت ، واخـذت .

ينادى أبى الميت .

اقتربت فرفع رأسه أكثر وضربت الأرض العصـا .

هـــل يعــود ما مضى ؟

تنفتح ساحات الأســـواق .. تمتد الدروب المتشعبة عبر حقول الحنطة المذهبـــة .. يسير رفقاء الطريق حيث رائحـــة زهرات البرتقال على سكك الســـفر منورة ، تتضوع بمسك الحـــدائق فى زمن الربيع .. على رؤوس الحقـــول .. على ارض المرابط .. فى ظل الشجر والحيوان تفتح المناديل المربعـــة على خبزات ناشفة .. تنكسر مع أصوات الرجال .

« ســـلامة »

عينـــاى فى عينيـــه .

« انا سعيد يالعم »

ينهض بمعاونة ابن أبى ويخطو نحـــوى .

« سعيد ابن سلامة .. اخيرا عدت »

لحته يجهش بالبكاء .. يضع يده على عينه ويهتز .. تنقبض ملامحه العجـــوزة كورقة مطوية .. وأنا أعيش الزمن المبـــارك الذى خلا .. عم « عبد الغفار أبو هلال » هل يحيا ؟ .. لابد انه ميت .. ميت منـــذ سقط الجـــدار الشرقى (للرواق) وبانت بطن حجرة عشاء العمر الذى راح .. أدرك الآن ان خطوى على التراب علامة على وجـــودى فى المكان .. لكن خطمه يبـــدو الآن فارغا وفكه فك شاة عجـــوز .

« اياك تبكى يالعم »

غاب الرجل عن عينى .

كأنما غللته غلالة من ضباب شفيف ، وأنا أسير فوق صفحة من دموع .. أراه ولا أراه .. تشف اللحظة حينا فكأننى أحـــدق فى

أبى الميت .. تأخذنى الرؤيا فأرانى أطارد مامضى فى البرية على ظهر جــوادى الأشهب والذى ضاع منى مقوده .

استند للجـــدار ثم جلس ، يده على ركبته وعصاه أعلا منه .. كان يبكى بصوت مسموع ونشيج ملىء بحسرة العمر المنقضى أشبه ببكاء طفل وحيـــد .

« هل كان يبكى أبى ، أم كان يبكينى ؟ »

لحظتها ..

تجلى لى أبى فى سدرته .. بيت مداهم بالريح .. يتكىء على حشايا من ريش .. خلفـــه ستائر خضراء تحبس ضـــوءا أخضر يجرى من تحتـــه نهر من عسل وآخر من حليب بينما أنا أخوض فى بطن الأيام الزائلة يرجنى الحنين ويفزعنى الصوت .

(هل كانت أبواب البيت — (الرواق) موصدة ؟ .. هل هـــو الصوت الذى يأتى عبر الآماد البعيـــدة ؟ .. أم اننى كنت احلم ؟ .. وهل فى قدرتى أن أمسك الأيام وألم عصف الرياح فى راحـــة يدى ؟ ..)

غايتى أن استحوذ على زمن يضيع .

لكن صوانى العشاء الأخير تحت السماء المكشوفة عليها أطباق من فخار خالية من الزاد .. حوافيها مكسرة الا من قطعة من لحم حى ينغل فيها الدود ، وأناء النـــار قد انطفأت شعلاته .

زيـــــــارة

« الأرض جامدة والسماء بعيـــدة »

جــدتى

زيــــارة

قال الأب العجوز ، وكان وجهه مغضنا ، وحزينا :

ــ لنذهبن .

نظرت فى عينيه الأم ، وكانت أيضا شيخة هرمة ، ضئيلة الجسم حتى يمكن صرها بطرحتها السوداء القـــديمة :

ــ نعم لنذهبن حيث المقابر .

دفعت هى الأم بابا كالحا فأن أنينا رفيعا انداح فى ظلمة قاعـــة (المعاش) التى انفتحت أمامها تهوم فى جنباتها ظلمة ، وثمـــة ضوء ينفذ من ثقب بالشباك راسما دائرة من النور تبدد ظلمة الزمن الراكد داخل القـــاعة .

الفرن القـــديم يجثم وسط القاعة جمل بارك ، بفوهته الترابية وروائح حمية اوانى اللبن تفوح مألوفة وحميمة . مصطبة يأخـــذها الجـــدار فى حضنه فى عناق قديم ودود ، يستقر فوقهـــا صندوق خشبى له الوان كالحة وممسوحة ، عليه غطاء من خشب أبيض له الوان كلحت بفعل الزمن ، ومسحتها يد الأيام ، عليـــه رسم لمحمل ، وطريق مقطوع بجرح غائر .. فى مكانه منذ عرس الأم ، منزويا فى الركن ، كلما أمتدت له يد أتت أيام الحنين المنتهية .

خطت الأم داخل (بحراية) القاعة وهمست لنفسها :

ــ سبحان من له الدوام .

دفعت نسمة مفاجئة الباب فأن أنينا حزينا وراوح مكانه .

فرشت على الأرض ــ وبجوار الصندوق ــ منديل الأب المخطط. وبدت يدها ناحلة الأصـــابع : ورفعت غطاء الصـــندوق ، فهبط

شعاع الشباك داخله .. دائرة حية من النور تتماوج بها آلاف الحيوات . زكمت أنفها رائحة الزمن القديم وتسارعت دقات قلبها . تناولت من قاع الصندوق «كمكات» و «عدين» برتقال ، وفطيرة ماتزال ساخنة .

قالت أيضا :

— رحمة ونور على أرواح المسلمين .

نهضت وسحبت من تحت المخدة الكالحة اللون والمفروشة على سطح (الفرن) شمعتين . صرت الشمعتين والبرتقال والفطيرة بمنديل الأب المخطط ، وعقدت أطرافه ، وحدقت فى الظلام حيث أخيلة كثيرة تذهب وتجىء أمام عينيها الكليلتين .

بكت عندما اصطدمت يدها بقماشات بنتها المطوية داخل الصندوق .

كأنما فى لمحة زمن ، فجائية ، انطفأ الشعاع ، كأنما شىء قد حجز ضوءه ، وكانت على حافة (الفرن) عروس تجلس بضفيرتيها المسترسلتين وصدرها الناهد ، كأنما الأم فى لمحة الزمن الفجائية هذه قد أحست بأنفاس بنتها ، وتأكدت مشاعرها أن روح البنت لم تبرح الدار بعد . لم تخف الأم ، واستدارت الى حيث الطيف ، هو الشعاع لم يزل ، والأم وسط (قاعة) المعاش شاردة .

خبط الأب العجوز الباب بعقفة عصاه ذات البزوز العريقة ، المقطوعة من ذكر التوت القابع على حافة سكة المقبرة . خرجت الأم من شرودها ، وفتحت الباب ، وحدقت فى عقفة العصا ذات البزوز .

قال لامرأته :

— لنذهبن .

جففت دموعها بذيل طرحتها بينما يدها الأخرى تقبض عقدة المنديل الذى يسقط حتى ركبتها .

قالت :

— نعم لنذهبن .

كان بعد العصر شفقا ، وكان مرجا أخضر وبحرا صغيرا ، وطيرا فى الفضاء مغتربا ينوح فى سماء الله العالية ، أرواحا هائمة ، يضرب الفضاء بأجنحته ناحية المغارب وسط كومة من سحب دخانية تسبح بجو تكسوه برودة خفيفة . الهواء لم ينم بعد ، يسفح أوراق الشجر فيأتى الحفيف كالسر ، ضاربا القلب ، تبتعد عنهما البيوت ببطء خطوهما ، ويتسمع الأب دبة العصا ذات العقفة ، وذات البزوز ، على تراب الأرض ، الذى هو تراب المقبرة .

الطريق الى المقبرة طويل مسكون بالأسى والبلد تتهيأ للدخول فى الليل . كانوا اناسا كثيرين يعودون ، وكانت الأم والأب يرون الأسبتة وقد فرغت من رحمتها «البقية فى حياتك ياخالة» تلقى الكلمات ، ويحث الخطو ، ولا ينهزم الزمن . المصارف الضيقة ذات المياه الخضراء الرائقة مملوءة بأخيلة الزرع . يندفع على الشط الآخر غط اسود العينين ، يموء بصوته المستنفز . أطفال كثيرون فى صفوف يعودون مع أول المساء ، وقد حشى كل منهم (سيالته) برزق رحمة الخميس المعتادة ، تظهر سيقانهم الرفيعة من تحت أثوابهم فروعا صغيرة لأشجار جفت .

ثم ولد صغير وحده . على التل وحده . ذلك التل الرملى المواجه للمقبرة حيث ورثه الزمن ، وحيث ورثوه هم . الولد الصغير ينظر كرة النار التى تعبر النهر ، وتغيب عنه فى البعيد ، وترسل الليل طرحة للبيوت المنتظرة . دوم الهواء الذى يشتد عوده ، والذى لم ينم بعد ، وعفرت سكة السروح ، واهتز ماء المصارف برعشة مفاجئة .

سألت الأم الصبى : «لماذا يقف وحده على التل ؟» قال لهـا : انه يود ألا تغيب الشمس ، وقال لها أيضا : انه يخـاف الليـل، ويخاف المقبرة . حدثته عن الشيخ ، والظل ، والايام التى لم يعد يتبقى من زادها الكثير .

وضعت الأم صرتها على الأرض . فكت العقـدة ونادت على الأطفال العـائدين :

— رحمة ونور ياخاله .

فردوا احجارهم . كل أخـذ نصيبه ، وعادوا من حيث أتت بهم السكك .

الولد وحـده على التل يغرقه لون الشفق ، والأشجار تبـدو على البعد محترقة ، بينما تلوح ظلال المقابر ، وأشجار المستكة ، والدندان ، والتمرحنة ، أشياء مألوفة فى الزمان والمكان .

نادت الأم على الولد الواقف على التـل :

— رحمة ونور يابنى .. تأخـذ ؟

لم ينظر نحـوها ، وخطا للأمام يحدق ناحية الغرب . رفع طاقيته فانهمر شـعره الأثيث ، قويت الريح ، وتكلم الشـجر . بينما كرة النار قـد اختفت ، وشعر الصبى تطوحه الرياح ، يرقب بحيرة الدم المنداحة ، وقد تملكه سحر كالموت ، خلفه البلد كومـة من التراب وللريح صوت كالهزيم . أقشـعر قلب الابوين . أتى الأذان ، وكأنه قراءة ما بعـد العشاء فى المسجد القديم .

تعب الأب من طول الوقوف . فجلس مسـندا ظهره الى ذكـر التوت العتيق ، بينما جلست الأم زوجته بجـواره .

أخذت تقشر البرتقال للصبى الواقف على التل ، والذى ينظر المغيب بشغف كالموت ، وتطوح الريح بشعره . امتدت يد الأب ، واجتزأت لقمة من فطير المنديل .

أتى المساء عوضا عن تعب النهار وخيبة المسعى ، ولم يعد يرى فى السماء أى طائر ينوح . صفرت الرياح . وكنست وجه الأرض ، وطوحت شواشى الشجر .

— سبحان من له الدوام .

قالت الأم . رمشت عينا الأب ، وحدق فى النبع الذى يفيض ماؤه ، وانتظر لقفة النفس . قال :

— من ذا الذى يريد أن يموت قبل أوان موته .

أخرج الصبى الواقف على التل — الذى ينظر بشغف الى كرة النار والذى تطوح الريح شعره الأثيث — مزمارا قديما من نحاس، عليه علامات ، وبدأ يعزف وحده على التل . تمدد الأب العجوز على الأرض بطوله ، مستلقيا على ظهره ، يتسطح جسده النحيل على تراب الجسر ، بينما يده اليمنى مثنية تحت رأسه كأنها وسادة، مثلما تعود أن ينام من قديم ، من طفولة المهد حتى اللحظة ، تحت السماء المكشوفة ، ولذعة برد الخريف ، فى أوائل أماسى الظلام ، حيث تأتى من البلد ، مع اندفاعات موجات الهواء الخريفية، دقات طبول عرس تتتابع الى قلب الأم الذى تسارعت ضرباته ، وتسلل اليه الخوف المفاجىء ، والحس بمجىء الليل الداهم .

صوت المزمار ، وظل الصبى ، والهواء العاصف .

سمعت صوت غطيط الأب ، فأخرجت شمعة ، وقسمتها نصفين ، وضعت عند رأس العجوز الراقد فى ظل الليل — زوجها نصفا ، ووضعت عند قدمه نصفا . اشعلت النصفين ، لحظتها ارتفع عزف المزمار ، واشتد هبوب الريح الغربية ، فأطفأت الشمعتين ، وأسكت صوت المزمار .

ســـنوات الفصـول الاربعـــة

سنوات الفصول الاربعة

الشـــــتاء

« في الشــــتاء »

« تطلق الخالة الجنيات »

« من موقد النـــار »

شـــتاء أم غرق ؟

الكفر موحول . ولاحول له .. المطر لايفلته الهواء ويدور به كرشاش .. (سنة خير على أمة محمد) .. هذا ماقالته الخالة (رحمة) وشدت على جسدها الغطاء .

تطلعوا للسماء ولم يروا نجمة .. خافوا صوت البرق ؛ وزلزلة جمال الفصول .

نعرفها قبل أن نعرف زمان المطر .. الخالة التى تحوطها طرحة سوداء والتى اسمها (رحمة) .

يتكور أولاد الدار (ماضى) و (سعيد) و (بصار) .. ثمة بنات غانيات يحلمن بالشتاء يجمع غيومه ويفارق السماء لتأتى الشمس الذهبيـــة الحرة .

— هاتوا القوالح . قالتها الخالة ورمشت بعينيها .

نهض الولد (ماضى) وفتح باب المندرة .. اندفع تيار بارد فانكمش الغلامان ؛ وهمست الخالة :

— برد .. برد يجمد العظم .

شد (سعيد) الغطاء على البنات المكشوفات يحلمن بالشمس .

فتح (ماضى) الباب وعاد بالقوالح فزاحمه التيار ودخل قبله ، فهمست الخالة (أعوذ بالله من البرد) .. لما جلس الولد (ماضى) نفخ فى يده وقال (تلج بره .. الثلج) .. هزت الخالة راسها .

كسرت الأيدى الصغيرة القوالح الصائنة . وكانت تسمع فى المندرة الضيقة طقة كسر القوالح وكانت تترك فراغات الحبات علامات بأيدى الصغار كالزخارف .

أحضر (بصار) الموقد الفخارى ، كان بليلا ببول البارحة .. قال وهو واقف يهرش ظهره وفخذيه :

— أغير التراب ؟ فقالت الخالة .

— لا

جلس الولد وفرد رجله ، ثم قرب أنفه من الاناء وشمه .

— ريحة الصنان هتعبا .

كان المطر ينزل كالسيل ، والرياح تضرب خلف النوافذ ، وتنسل عاوية فى سيوف القش النافذة من السطوح .

على الحائط معلق غربال مثقوب بالضوء يرسم شبكة الظل التى تهتز كلما اهتزت النار .

عندما سكبت الخالة من الموقد البترولى دفقة الجاز ، واشعل (بصار) عود الثقاب فى هرم القوالح الصغيرة ، انفجرت فى الحجرة حصيرة النور ، وتربع الغلمان حول الموقد يفركون أكفهم وكانت النار تسرى وتطقطق فى القوالح الصائنة .. لما سرى الدفء قال (سعيد) .. (الدفا عفا) ، وانزلت الخالة من على صدرها الغطاء .

عندما تأملوها كانت صامتة ، وكان يرتسم على وجهها العجوز خطوط متوازية ، وكانت نظرة العين ساهمة .

(من أين أتيت ياخالة ؟ .. لا أهل ولا دار .. مقطوعة .. أمنا أنت ونحن الراضعين من لبنـــك نندس فى حضنك كل ليلة).

عندما كانت النار تهتز عالية ، كانت أصوات نسوة فى الشارع تأتى مستجيرة .. تنضح النسوة ماء المطر الناشع من الســقوف والذى تخطى العتب .

— قولى حــدوته ياخـــاله .

تدور العينان الشحيحتان وتتفرس فى الغلام ، ثم لا ترد الخالة .

— حــدوتة الشاطر حسن ، وست الحسن .

(وكنت قــد ودعت أمى وأبى ، دفنتهما بيدى من زمان ، وكان الناس فى البــلاد قلة وعندما عدت كنت وحيــدة ، حيث لا دار ولا ناس .. لذلك دخلت أول الأبواب التى فتحت لى ، وكان يحيط بالدار ســور على حــديقة يملكها رجل من الكرام) .

— لا .. حــدوتة ســعد اليتيم .

— عاوزين حــدوتة شمس النهار وقمر الزمان .

الأجساد الواهنة التعبة تتسلل محشورة ، منكمشة على سطوح الأفران المحمية بنار الخبيز ، وداخل المقاعد ، وعلى أراضى المنادر تحت السقوف الوطيئة .

ساعة أن توحد المقاهى فى وجه الريح ، ولايرتفع فى ضــوء (الكلوبات) الا دخان الجوز ، ورشفات الشـــاى الثقيل الزردى ، وهمس الرجال عن الفصول ، ومواسم الحصاد وشـــهور الزرع القبطيـــة .

تموت فى البرد أصـــوات صرار الليـــل ، ويسكت نباح الكلاب الضالة ، ثم تخلو الشوارع والحارات من المداسات الحاملة عطايا الوحـــل .

— زعــلانه ليــه ؟

— أبدا .. مفيش .

— حــد زعلك ؟

— أبــدا .

(طول العمر مرارة فى القلب ، ومن يوم أن كفنت أبواى بيدى وأنا يالغريبة أيامى فى الدنيا طالت) .

نام (سعيد) على فخذها يتأمل ذلك الوجه العجوز ، القديم .. كانت دمعتان تنسلان من العين على الوجنة الغائرة . وكانت تهز يدها تمسح دمعها .

— الخــالة رحمة بتعيط .

أقعى (سعيد) ينظر فى عينها .. سقطت رؤوس العيال فى حجورهم الا ذلك الغلام المنتبه لحزنها المفاجىء .

دس يده فى جيبــه واخرج برتقالة .

— خــذى ياخــلة .

أخذتهــا ووضعتها بجانبهــا .

— أقشرها لــك ؟

لم ترد .. تنظر الى جمرات النار الحمراء كعين جن الحكايات ، ودموعها لاتنقطــع .

— كان ياما كان ، ياسعد يا اكرام .

هتف (سعيد) بالغلامين :

— اصحوا ياأولاد الخالة هتحكى الحدوتة .. هيه .. وبعدين ياخالة .

عند ذلك يتسلل صوت الخالة ، نافذا داخل مشاعر الغلمان، قابضا على قلوبهم ، فاتحا عيونهم حتى الذعر .

تشير بيدها فتتلى التعاويذ من فم السحرة ، حيث المغارات القديمة التى تحوطها صحارى برمل وكثبان عالية ، وجبال سوداء يسكنها وحوش ، ونسور جارحة ، يعلو دخان حرق البخور وبصندل بروائحه الاليفة ، المزوجة بالعطر .. يأتى الجنى ، ذو الطول الفارع والقامة المديدة والعين الوحيدة المشقوقة ، وخصلة الشعر على مؤخرة الراس .. (سامحنى ياجنى فأنا صغير وجاهل بالمسالك .. يحمل الجنى الغلمان ، وتكون راسه فى السماء ورجله مفرودة على البحر المالح .. رجل على شط بلاد الكفار ، ورجل على شط بلاد المسلمين .. يركبون الحمار العفريت ، الذى يعلو بهم حتى سطوح الدور .. تنصحهم الخالة يدق مسمار فى ظهره .. يتهافت الحمار العفريت ، ويرمح جاريا مطلقا من مؤخرته أصواتا منفرة ويضحك الغلمان .

هى الحكايا اذن ؟

تسد الازقة ، وتنهض أرواح الأسلاف ، تفك بهائم الدار ، وتطلقها الى الغيطان فى براح الليل وكشف القمر .. حيث تأخذهم النداهة وتتوههم فى مدن السخط والحجارة ، لتعود بهم البسط الطيارة ، الملونة بألوان البهجة والفرح ، المرسومة بعرائس صغيرة ، وعصافير مفرودة الأجنحة ، محملين بصناديق الجوهر واللؤلؤ .

لكن الخالة الليلة لاتحكى .

الخيالات توقفت على الجدران .

— مالك ياخالة ؟ قال (سعيد)

ردت عليه :

— مفيش .. سلامتك .

النهر نحسو قطرات المـــاء ، وتزقوا فرحة .. زهرات عباد الشمس تتوسل للشعاع الهابط ، وعجل صغير اهبل ينطلق فى نزق الطفولة قرب المدار المسور بالشجر .. تقف على جنوبها شـــوالى اللبن مستدبه صيد الأفران فى انتظار حلبة الصباح .

ربط العم (احمـــد) الجاموسة ، والبقرة المنقطة والعجل الأهبل على المربط المقام عند رأس الغيط المزروع بالذرة .

كان الولد (بصار) يبكى ويمسح دموعه ومخاطه بطرف كمه ، ويدور حول المربط رافسا الحصى بمداسه المخضر بوحل الزريبة .

ــ تكنك مش ساكت فى نهارك .

قالها العم وسحب الحمار حيث ربطه فى ساق شجرة الكافور .

ــ تشمعنى (سعيد) يروح المدرسة وأنا أسرح الغيط .

سحب العم الشقرف المسنن واتجه حيث حقل الذرة .. توقف ، والتفت ناحية الولد ، ثم لوح له بالشقرف :

ــ هتقف عندك للظهر .. هتمد ولا آجى احش رقبتك .

ضرب الولد الأرض بقـــدمه ، والتقط طوبة قذفها الى بعيد وسار يتبع العم لا ينقطع بكاؤه .

زحف حر بؤونة الحجر على الحقول ، وانكتم نفس الهواء .. ألقى العم أمام البهائم عيدان الذرة وسحب الحمار الذى يهش الذباب بذيله .. صاح فى الولد :

ــ فطار البهايم أهه .. الضهر تنزل تنصف لها .. اياك آجى الاقى البهايم جعانة ، واياك تخطى خطوة بعيد عن المربط .

ركب العم الحمار وقال (حاد) ثم لكزه برجله فانطلق الحمار يرمح ناحية الحـــوض الآخر .

صمتت من جـديد ، كأنهـا لن تحكى أبدا .

خاب رجاء الغلمان ونام (سعيد) من جديد على فخذها يتطلع لسقف الحجرة الذى مايزال يحتفظ فى أركانه ببقايا خيوط الدخان الحـائرة .

حادثت نفسـها :

— كان فيه بنت صغيرة .. من زمان .. قبل الزمان .. وكانت وحيدة الأبوين .. كانت حلوة .. لكن ملهاش حد .. وبعـدين .. وبعـدين .. وبعـدين

تسلل حزنها للعيال ، وأتى النعاس من الجـدران والأغطية ، وحبسة الحجرة .. هياكل القوالح باتت رمادا .. يغوص الليـل فى وحـل الشارع ، والوحل على البلد برك ومخاضات .. خلق الله يتداخل فى بعضـه .

قامت وحملتهم واحدا ، واحدا ثم رصتهم على المخدة . واندست فى وسطهم تحت الحمل الصوفى الثقيـل .

الصـيف .

« عينى فى عين الشمس »
« أنا الطفـل »
« ما شانى ان طلعت »
« وان غابت .... »

الشمس كتكوت صغير ينقر جـدار الأفق .. يلتمـع المشرق بهـذا الالق الباهر .. يهـوى الشعاع على الأرض الصـباحية الرطبة .. يتساقط الندى من دغل الكافور على الجسر .. أقدام رجال النهار السارحين الى الغيطان تنطبع يحكمه الندى المفروش على تراب الطريق .. الطيـور التى هبطت من أعشاشها الى

سندان الحــديد يلبد فى الوسط برأس شعبان وجسد من خشب الكافور .. هى امرأة .. جارتنــا .. نهرها زوجها وأرسلهــا تسترد مداسه الذى خلل عند الاسكافى ابن الصرمه .. عندما قرعت الباب لم يرد العم (ماضى) فقرعته ثانية ونادت على الرجل (افتــح ياعم ماضى) ولمــا لم يفتح الرجل هزت الباب فتجمع ناس الحارة وكسروه عنوة .. كان الرجل ساقط الرأس حتى منتصف سندانه ويده الأخرى غارقة فى دلو المــاء ، حتى استغاثة الموت لم يطلقها حينما فاجأه مع شدة الخيط المبروم بالشمع الاسكندرانى .

كان الابن (ماضى) الصغير يتوسد يده فى ساحة الحارة ، ويغط فى النوم على بلاط (الزوايده) المسفلت .. انتزعته من عز المنــام صرخة المرأة ، ولغط الرجال .. نهض يهرش رأسه ويفرك عينيه ويحــدق فى لمــة الجمع المكدس بباب الدكان .

هز ابيه فلم يرد ، لحظتها ادرك ان شيئا غريبا قد حدث وأن (ماضى) الكبير قد سافر كآباء أترابه الصغار فى سفرة لن يعود منها أبدا .. ضربه قلبه فخاف .. استند لجــدار الدكان وتطلع الى صورة أبيه المنقوشة بزرق الذباب ووسخ الأيام .. بكى (ماضى) الصغير وأخذته المرأة فى حضنها ، وهى تربت على ظهره (ياحبيبى ياضنايا لا ام ولا أب) .

لأن حــوارى البلد فى الخماسين تكون متربة ، معفرة .. يعتم الجو ببرقة جهمة ، مخنوقة .. بحر مرمود ، وشمس معفرة بغبــار تعلو به ريح منفحمة .. الولد (ماضى) انين منفحم أيضا .

تأخر فى دفع الايجار فذهبت (العدة) خلص .. ينام بالمســجد بعد أن تطفأ مصابيحه . ملتفــا بحصير ، لكن أصــوات الحفيف والهمسات فى الأركان وعند المنبر تفزعه .. جاع فامتدت يده على فرش (أمين زايد) الفكهانى فأصلاه الجحيم .. ساعتها صرخ .. (كنت كمان ياعم أمين) .

جلس بجوار الحائط سيال الدموع ، وشمس النهــار ذليلة ،

انتزع الولد طاقيته ، ثم دسها فى جيبه .. رسم على الأرض أرضا صغيرة ، وشتلها بالسنبلات .. ضاق بالأرض فجمع طينها وكوره فى يده ثم رماه على طول ذراعه حتى أرض الجار .

جاء الصوت من ذيل الغيط :

— مش تحاسب ياولد .

خاف ، وتفل فى عبه ، ثم استدار ناحية الصوت .

تخرج الآن من غيط الذره ، بوجهها الرائق الجميل ، والذى لايعرف له عمرا ، يعلوه زغب خفيف ، زغب البكارة الأصفر ينمو تحت شمس الصيف التى تفضحه .. هتف مأخوذا :

— فريده .

عندما قال لعمه وهو يدور حوله (هى فريده دى مجنونة ؟) .. رد عليه العم (مالكش دعوه بيها) .. قال لعمه (انه يراها تكلم نفسها) ثم سأله (هى ملهاش راجل) .. فرد عليه العم (بطل رغى وشوف شغلك) .

وكان يراها كل يوم تسحب بهائم أبيها ، وتشتغل فى الأرض كالرجال .. صامتة كصمت ظهيرة الصيف هذه .

لكنها الآن تخطو ناحيته لاتطرف لها عين .. أعطاها ظهره وحمل دلو الماء واتجه ناحية المصرف الصغير .. شمر ثوبه فانكشفت مؤخرته ، وانحنى ينتح الماء فبان ذكره ملتصقا من بين فخذيه له طرف مدبب مشوب بحمرة خفيفة .

هى تقترب منه ، عيناها فى العورة المكشوفة ، والدم يسخن فى العروق .. لم يكن يحس بها وهى واقفة خلفه تتأمل عورته العارية .. فى الليل أب حشايا القطن ، والوحدة على ظهر (الفرن) وآلاف النملات تمشى فى الدم الفائر ، والذى تنتظره من زمان لا يأتى .. ينهد الجسد مسترخيا بعد رعشته المكهربة المذهلة .

خلت الأسبتة من العيش وفرغت الصحون من الغمـوس .. كن (أمينة) الأم تفتح زكيبة الحبـوب فتنهمر التقاوى مثيرة أنفاسا من تراب .. المحراث يدق فى رحم الأرض ، وتبذر الأيادى التقاوى التى تتحلبق عليها شفرة الأرض الشبقة فى مودة وعناق .. تتدفع المياه عبر المجرى المعشب الى الخطوط السمراء الذى يزيـط أبو قردان عليها دافنا منقاره بحثا عن الغذاء .. تجف الأرض وتشمس وتفسح الطريق للحبات الطالعة بنباتات بيضاء سرعان ماتأخـذ بيدها الشمس فتخضر وتلوحها الرياح فى أيام معلومة .. بعدها تصفر العيدان ، وتعمل فيها الشقارف وتكوم لتحملهـا الجمـال للأجران فتمتلىء البيادر بالحبوب ، ويعبق فوح الخبز السـاخن صاعدا من الأفران الى الفضاء .

لكن هـذا العـام فيه البيادر خادعة ، شحيحة .

الأجرى ابن الاسكافى القديم يسير خلف الحمار ينوءان معـا بحملهما فى يوم من أيام الربيـع الكذوب .

الخـــريف :

((وأنا أبكى اليك ، لابسا أقنعة الأشـياء فى رحلتها))
((خارجا حيـا من الميت ، راحلا فوق خيول الحـلم (*)))

من يضغط على الزناد ، ومن يغرس الجذر ؟

اول الطريق ماء ، آخر الطريق دم .

انزل مع الغسـق باحثا عما ضـاع منى — تلك أيام مضت — اعنى : ان استعجال الزمن بالفوت ، استدعاء للموت .

ياحلوة العين — يالغريبة — أما كان لك أن تنتظرينى ، حيث خيل الى — أنا طفل الماضى — اننى أسمع هديل الحكايات فى باحة (المندرة) ، وعبر السور .. كانت تناديني (خذ بيدى) .

(*) محمد عفيفى مطر .

مدت يدها وخلعت ثوبه وقميصه .. عاريا يكون تحت الظل المبرقش بالشمس المنفلتة من الأوراق .. خلعت ثوبها الشيت المبعثره فوقه وردات حمراء .. بان جسد البنت البكر متطاولا مشدودا .. اخذته فى حضنها فأحس بسخونة اللحم الحى .. صرخ مستجيرا .

— حرام .

اندس فى حضنها لائذا بها .. سحبته وسارت بينها تتعرى المحارم لشمس الظهر الاحمر .. مسدت ظهره بكفها ، حتى وصلت الى عورته .. يخرجان عاريين من الرحم ، .. ينظر الى منحدرات فخذيها مندهشا ، وذراعها تلتف حول كتفه .. اندهش عندما رأى ذكره يقف وهى تمسح له بيدها ، وتنظر اليه بعينين ثابتتين .

يبحر الآن الى وطن من الاندهاش ، واللذة .. تلتقط شفتيه بفمها وهو الصغير المفتون بما لايعرف .. يستحم فى عرقه ، ويسمع تنفسها اللاهث فى غيط الذره ، يتألم ألما عذبا وهى تشد على خاصرته بيدين قابضتين .

كانت مياه الساقية تنحدر عبر المجرى الصغير ، تتوسل لسد الطين الرخوا (ان افسح لى الطريق) .. عندما تكاثف الماء خلف السد اكتسحه .. الأرض الشراقى العطشى تنساب فى شقوقها مياه مواتية ، رضيه ريانه ، تطرد أمامها الغثاء الأجوف لتنتشى الأرض ببوادر الطلوع .

الربيع

« لايكف الأجراء »

« عن الحلم ببيادر الغلال »

مات الأب (ماضى) الكبير ، وانداحت المداسات القديمة فى اركان دكان الصرم ، مبقورة البطون مشقوقة الحواف فى استغاثة داخل الدكان المستأجر بريالين فى الشهر من وقف ابوحسين .

— انتفخت جثته ، وصعدت اليـد من الطين تشير للطـريق المتواشج بالشجر .

ياحلوة العينين ، ياحنينة الصدر .. لانك مت فأنا لا أكف الا أن أعيش .. الطريق اليك محفوف بخوف الليل ، حيث تنطفىء بقلبى النجوم .

(وانت المفارق للوطن ، وللدور القديمة ، ولساحة (المندرة).. هاهى الخالة مسجاة فى الوسط بعين مطفأة ، تسيل منها الدموع ، تنظر بها ولاترى .. يلتف حولها نسوة فى السواد يطلقن نديا كأنه اناشيد حزينة .. تصمت كأنها لن تتكلم أبدا ، ثم تعوى صارخة — اريد أن أرى الولد — الذى هو أنت — لااريد أن أمـوت قبـل أن أراه — فبالله متى تعـود ؟) .

أطوى الرسالة واغرسها فى قلبى .

أمشى على شاطىء الخليج .. على حافـة السكين .. أرى ظلال الصيادين على الماء ، والنوارس تصرخ ملتاعة فاردة أجنحة كالشراع .. رمل الحافة مهاوى ، وهـواء البلد الغريب له فى الفم طعم الملح .. أعود للبدايات التى لن تنمحى ، وأرى زهرات الجسور فى سلال الذاكرة متوهجـة بالحياة البعيـدة من العمر .

ثلنى فى قلبى خنجر مرشوق .. هى العجوز تجلس فى رواق القلب تتحادث بالأيام والفصول .

بين الحجر وخرير المـاء شجرة مخضرة .

تزهر فروعها بزهرات بيض ، ولا تطـول قامـة الصبى الذى كان والذى كنتـه .

هل هى شـجرة غريبة ؟ .. أم هى المستكة التى تخضر فى المقبرة ؟

لا أعرف الشـجرة ولا أود أن أسأل .

كاشفة عن قدم الجدران الرطبة .. تمخط العم (احمد) وبصق على الأرض ، نظر للولد (ماضى) وقال له :

— قاعد كده ليه ياله ؟

نظرته جوعى مستغيثة وثوبه الكستور الكالح نسله القدم .

— ماتيجى تنشبك عندنا ياله .. واديك تتلقح مع العيال .. مالهـا الفلاحة يعنى .. قوم جتك الغم بدل قعادك كده تمسح الأرض بطيظك زى العواطلية .

زحف الغلام ، واندس تحت ابط العم الذى وضع يده على كتفه، وتوجها الى الدار .

اصبح ابنا للأسرة .. يحش البرسيم .. يعلف البهائم يحمل شوالى اللبن للمقعد العلوى يندس فى الليل وسط الغلامين .. يوقد النار ويوقظ الجنيات ساعة سماعه لحكايا الجدة .. خشنت يده ، وتشقق كعباه ، وكبس رأسه فى طاقية من صوف الغنم .

هل فارقه اليتم ؟

هو الأجرى باللقمة والهدمة .

غريب ذلك الصبى الذى يسير فى هجير القيالة وراء حمار يئن من حمله الثقيل .

الطريق الى حوض النجار يتوشح بزهرات العليق والأرض منورة بأقماع البرسيم .. تترى أحلامه مع ايقاع الخطو الرتيب .. يهمس فى نفسه (الكل فقير) .

الأجرى أفقر الفقراء .

المحتـــويات

وكنت الخائف بأيامى ، أستعيد عطفك الذى يأتينى من ساحة (المندرة) التى كنا فيها أنا والصبية الصغار ، قابعين والذى اخذ منا الرب أيامها ورحل .

من قال لى (احزن) ؟

ربما كان هؤلاء الأعداء .. أو هؤلاء الذين يحبوننى .. ربما تلك السنوات العجاف التى ضيعت فيها عمرى .. المسجونة بسفر عنين معزول .. اطارد فيها الشوارع التى تتعلم بعلامات منقوشة بالدم والعرق ، والتى لها وجه الأعداء .

هل عدت للسور والورد ، وشتلة الزرع التى تنتظرنى بعد انقضاء كل هذه السنين ؟

ذلك لأن الخريف لم يكن انتهى بعد ، وان كان قد بدأ منذ زمن لا اعرفه .. **كانت مواكب الرجال الملثمى الوجوه ، الذين يحملون البنادق ويمتطون صهوات الجياد ، يعدون على صخب الدفوف ، يدورون حول مقام (أبو حسين) صاخبين .**

(الخالة رحمة ماتت)

هل كانت ميتة ؟

كانت قد قالت لى (أنا — يالغريبة — أحببته ، وكنت أخرج من داركم التى تأوينى اقابله بين الماء وبين العشب الذى افترشه أرضا ، وكنت أنظر فى عينيه اللتين كانتا تأسرانى .. كان الوقت فى خضرة الزرع الطالع مع زمن الفصول الأوائل) .

— لبد له فى الذرة وطخه بالنار .

— صرخ وقال (روحولى جاى) ومات .

— حملوا جسده الساخن بالموت وطمروه فى الحوال ، وأهالوا عليه التراب .

وفى الليالى التى كنت أرق فيها ، فأنظر من نافـذة (المندرة) على شجر الحديقة فأسمع الريح تطلع من الأفق المظلم ، تعوى بالفروع ، فيما يمسح الغبار وجه الأرض .. أعـود بعينى من الشجرة الى (المندرة) ، لكننى لم اكن أسمع صوت السحرة فى المغارات القديمة ، ولا أرى الجنى الذى يفرد قدمه على البحر المالح .. رجل على شط بلاد الكفار ، ورجل على شط بلاد المسلمين .

هل كانت فى الوسط جالسة ؟

على كتفك غطاء من صوف ، جالسة تهدلين بالحكايا وتقولين بالنبوءة .. هى الايام تدور بى وأنا اقاوم الا انسى .

احمل فى الصبح فاسا ، فى قلبى الحنين وفى عينى الدموع .. أدور حول الشجره التى فى طول قامه الغلام .. احفر حول الجدر وأكتشفه .. ثم انتزعه بطينه والفه بالخيش ، وقش الأرز .. أحملها بين يدى وأذهب اليك فى مثواك الاخير .

لو أننى غير مدرك أن الذى يموت لايعـود ..
قادم اليك تدفعنى مخاوفى .. أحرث حقول المغارب بينما دارنا باتت غريبة .

أمام القبر تراب ككحل العين .. سبخ فى لون النشوق .. حجارة منثورة فى اركان المكان .. عظم لموتى ، وسواعد لهياكل ممدودة ، مستغيثة .. أمام القبر — قبرها — حفرت الحفرة ، وشتلت الشجرة التى ستزهر فى آتى الأيام .. تلوت سورة العصر ثم صرخت بألم باكى :

(خالة رحمة .. خالة رحمة)

* « مدينة الموت الجميل » الطبعة الأولى ١٩٨٥

* يطلب من دار كتب خانة للنشر والتوزيع
١٦ ش عيسى حمــدى ــ العجوزة

رقم الايداع ٨٥/٤٠٠٧

مدينة الموت الجميل

ازمنة متراكمة متداخلة من الوعى الجماعى ، وطبقات من الذاكرة المحتشدة وبحركة الأسلاف وكثافة حضورهم الحي فى الهياكل المتداعية والدور القديمة والدهاليز ، وعرق السعى الخلاق ودبيب التراب المتطاير تحت آفاق من الأساطير الرامزة والكائنات الشفافة والعوالم التى تنتفض باشارات الحياة ولغة الحلم ومنطق الروح الشعبية ، وعصف مرثية رجولية تتخطى الانفعال الى التحديق المتامل ، وتتخطى هشاشة العاطفية الى صلابة البحث ، وشهامة الشهادة الشجاعة على ما يتحلل ويفنى .. ذلك هو التنقيب الموهوب فى روح وابنية (مدينة الموت الجميل) باعتبارها الجذر الاصيل لايام يجب أن تجيء ، تلك هى المجموعة القصصية التى يكشف فيها « سعيد الكفراوى » عن موهبة فى التقاط الشعر مما هو يومى عابر ، فى الأشياء ، والتصوير الشامل لوطن تتدافع فيه شيخوخة الذبول ونضارة التذكر وصبوة الزمان والمكان لتفتح ثغرة للولادة .

« محمد عفيفى مطر »

كان يجب ان تكون هذه المجموعة بين يدى القارىء قبل زمن، حيث جاءنا « سعيد الكفراوى » منذ الستينات من قلب الدلتا ، محملا بذلك الحلم الكبير فى واقع اكثر عدلا ، وشرفا ، ونضارة . وهى المشاغل التى عبر عنها بشخصه وقصصه منذ تلك الايام وحتى الآن .

ورغم غيبته زمنا ، الا ان هذه الغيبة لم تدفع به الى الهامش من احوال الوطن ، ولا افلح غبار العار الذى يزهق الارواح ان يوهن منه القلب ، او يجهض حلمه الكبير القديم .

ولعل بمكابة « سعيد الكفراوى » أن يكون اضافة هامة ، ومتميزة لتلك القصص التى اتخذت من الريف مشهدا ورؤية ، ولعل هذه الاهمية تتمثل فى انه وهو يتخذ من بيوت الطين دارا يسكن اليها ومن تلك العلاقات والمواقف الدائرة بين اهلها حكايا يحكيها ، قد كشف عما اكتنزته هذه وتلك ، من ذلك « الحضور الانسانى » الآسر

تلك هى القيمة الكبيرة التى تحملها لنا هذه الكتابة .

وهى القيمة التى بغيابها ، لايبقى لنا الا مايملا القلب بالقساوة، ويطلق اسار الغلظة والفظاظة والالم .

« ابراهيم اصلان »

ينفرد « سعيد الكفراوى » بين الكتاب الذين عالجوا عالم القرية فى قصصهم ، بسمات واضحة . فعينه اللاقطة ، وقلبه المتمكن ، يعملان فى تلك المنطقة الغامضة من الواقع ، المشحونة بالطقوس والخرافات ، المأسورة بالخوف القديم من سطوة العناصر وقهر السادة ، والتى كانت دائما مصدرا لاينضب للابداع .

وهو يستخدم لغة متينة ، بحرص بالغ على سلامتها ، وولاء تام لجذورها ، مع قدرة على تطويعها ، وجرأة على تطعيمها بمفردات الحياة اليومية ، لتعبر عن التفاصيل الدقيقة لعالم من الاشياء والأحاسيس ، الفنا أن ينقل الينا بلغة مستمدة مباشرة من اللسان الدارج .

وبينما هو بالتأكيد من المجددين ، فانه يحافظ على عذوبة الحدوتة ، فيعيد الينا متعة أضاعها الغلو فى التجريب .

وهذا كله يكفى لان يجعل له مكانا متميزا بين كتابنا المجيدين .

« صنع الله ابراهيم »

الثمن ١ جنيه

الغلاف والرسوم الداخلية للفنان : سعد عبد الوهاب